المدرسة القرآنية

السنن التاريخية في القرآن

السيد محمد باقر الصدر

أعاد صياغة عباراته وترتيب أفكاره
الشيخ محمد جعفر شمس الدين

دار التعارف للمطبوعات

المدرسة القرآنية

المدرسة القرآنية

السنن التاريخية في القرآن

السيد محمد باقر الصدر

أعاد صياغة عباراته وترتيب أفكاره

الشيخ محمد جعفر شمس الدين



دار التعارف للمطبوعات



المكتب : شارع سوريا ـ بناية دوريش ـ الطابق الثالث

الادارة والمعرض ـ حارة حريك ـ المنشية ـ شارع دكاش ـ بناية الحسنين

ص. ب ٨٦٠١ ـ ١١

تلكس تعارف ٢٣٦٤٤ ـ LE

منهج الباقر في التفسير

د . حسن عاصي

في الحديث عن السيد محمد باقر الصدر ، تتذكر اولئك المفكرين الموسوعيين الذين حذقوا المعرفة بشتى ضروبها : فلسفة ، فقها ، سياسة ، وحتى تاريخاً ومنطقاً . نتذكرهم في عصر اتسم بالتخصص والعمق إلى درجة بات متعذراً معها على الباحث الاحاطة بمعارف خارج دائرة تخصصه واهتمامه .

نتذكر اولئك المفكرين امام تعدد معارف الشهيد الصدر وغزارة انتاجه في الفلسفة ، في الاقتصاد ، في المنطق ، في الاجتماع ، . . . ، وحتى في التاريخ خصوصا اذا ما قيس هذا التراث بقصر العمر التي لم يتح لسيدنا مواصلة هذا النتاج القيم ، وبلورة نظريته ومفاهيمه على رغم وضوح افكاره وجلاء طروحاته . هذه المعارف نجدها في مؤلفات[1] قائمة بذاتها ، كما نجدها في ثنايا خطبه ورسائله ومحاضراته .

لا نطمح في صفحاتنا هذه إلى تناول فكر الشهيد الصدر بمضامينه وطروحاته ، لأنها اضيق من ان تتسع لذلك . على امل ان تكون نظريته موضوع دراسات وأبحاث تفي الرجل حقه ، وترتقي بالبحث إلى مستوى يعادل اهمية تلك النظرية وابداع ذلك المفكر .

موضوعنا في هذه الصفحات هو منهج الشهيد الصدر في التفسير . نتناول

---

(١) من هذه المؤلفات فلسفتنا ، اقتصادنا ، الاسس المنطقية للاستقراء ، . . . وقد طبعت هذه المؤلفات طبعات عدة ـ دار التعارف للمطبوعات .

فهمه لتفسير القرآن ، رأيه في التفاسير السابقة ، وظيفة التفسير وهدفه ، ومن ثم قابليته للحياة . واذا كانت التجربة هي المعيار في العلوم التجريبية ، فان المقارنة هي المعيار في العلوم الانسانية . من هنا قدمنا للحكم على تفسير الشهيد الصدر بمهاد نستعرض فيه ماهية التفسير وشؤونه ، مقياساً نقارن به ما وصلنا إليه في دراسة منهج الشهيد الصدر وتقييم ذلك المنهج .

واذا كان الشهيد الصدر قد عرف بفلسفته واقتصاده ومنطقه ، فان تفسيره لا يقل اهمية عن كل ذلك ، لا بل قد يكون الأكمل والأرقى من خلال استناد كل نظرياته وطروحاته على ذلك التفسير الذي ، كما سنرى ، يتجاوز ما عداه من تفاسير : انه تفسير متحرك يواكب الحياة ويسير مع الزمن ، ليكسب النظرية القرآنية قيمومة تجابه ما يتحداها من نظريات وأفكار .

ما يطالعنا في استعراض مؤلفات الشهيد الصدر هذه الـ « نا » التي الحقها بفلسفتنا ، واقتصادنا ، ومجتمعنا[1] . هذه الـ « نا » التي تحدد الهوية والانتماء : الهوية ، الاسلام العقيدة والفكر . والانتماء ، الحضارة والتراث .

فالباقر يرمي من خلال تلك التسمية إلى الرد على التحدي الذي جوبه به الاسلام ، والفهم الخاطىء المتعمد لروح الاسلام حضارة وتراثا وناموساً للحياة .

فالانسان ، كما فهمه الشهيد الصدر ، خليفة الله في الأرض : « إني جاعل في الأرض خليفة »[2] ، والله هو الهدف الأسمى والمثل الأعلى للانسانية جمعاء . وقف الشهيد الصدر امام استخلاف الله للانسان وائتمانه في الأرض ، فساءه واقع ذلك الانسان يترنح قلقاً أمام قدسية الخلافة ، ويتلوى ضياعاً امام شرف الأمانة . فقام يذكر الانسان بانسانيته املاً بالارتقاء بتلك الانسانية من

---

(١) هذا المؤلف لم ير النور ، يشير اليه المؤلف في مقدمة كتابه « اقتصادنا » دار التعارف للمطبوعات) ط ١٧ ، ص ٢٧ .
(٢) البقرة : ٣٠

دنس الواقع إلى قدس الخلافة وشرف الأمانـة . فكانت دعـوته إلى الانفتـاح على رسالة الاسلام الحقيقية ، وادراك وحـدوية طريق الخلاص بالانضواء تحت لـواء الاسلام نظاماً وسلوكاً وممارسة .

الاسلام ، برأي الباقر ، وحده طريق الخلاص بعدمـا عانت الانسـانية ، وما زالت ، من الوان القلق والتذبذب بـين تيارين ملغـوم كلاهمـا بقنابـل الذرة وأساليب الدمار ، الاسلام الباب الوحيد الذي لم يبق غـيره من ابواب السماء ، واحة وحيدة في صحراء العصر .

خاب الأمل في كل من الماركسية والراسمالية، على رغم اخلاص الكثـيرين لهاتين الايديولوجيتين اللتين جعلتا انسان العصر غنيا شقيا ومتمدنا وحشا .

العلم كذلك لم يفلح في ان يكون بديلا كما كـان يدعي ، وانمـا اطل عـلى البشرية بالقنبلة الذرية الفتاكة . فالعلم بدل ان يستأصل شأفة القلق من خـاطر الانسان رسخ ذلك القلق ، وأخضع الانسان عبداً للقوة ورأس المال .

خـاب الأمل في الاشـتراكية والـرأسـمالية ، وفشـل العلم ، ولم يعـد غـير الاسـلام وحده طـريقا للخـلاص ؛ ولكن اي اسلام ؟ بـالـطبـع ليس الاسـلام التقليدي الجامد . الاسلام كما يفهمه الشهيـد الصدر وكـما يدعـو إلى فهمه فهـما متكاملا ، فيرى الاسلام بالاسلام ، ثقافة تستند إلى تحليل تنقية من كل ما شابه في عهود الجهل والظلام .

هكذا فهم الشهيد الصدر الاسلام ، فهـما كلفه كثيـراً حتى حياتـه ، ومن ذلـك الفهم انطلق في تفسيره للقرآن ، واستنـد في ذلك التفسـير لـطرح كـافـة نظرياته الفلسفية والاقتصادية والمنطقية والاجتماعية ، واعتبار ذلك التفسير معياراً لصحة وصدق كل تلك المفاهيم والأفكار .

مدخل إلى التفسير : الحديث عن التفسـير يـطول ويتشعب ، ولا تعنينـا تفاصيله الا بقدر ما تشكل مهـاداً نبسط عليه تفسـير الشهيد الصـدر ، ومقياسـا

نقارن به افكاره ، تمهيداً لتقييمه والحكم عليه .

تعددت تعريفات التفسير ودار الكلام بينه وبين التأويل ، لكن التعريفات على تعددها التقت عند روحية واحدة ؛ انه « علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها واحكامها الافرادية والتركيبية ، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات ذلك »[1] .

والحاجة إلى التفسير املتها دواع عدة منها :

- خصوصية الخط العربي الذي يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة . ففي الآية « هو الذي يرسل الرياح بشرا »[2] يصح ان تقرأ نشرا بدل بشرا . كما في الآية « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها إياه »[3]؛ هنا قد تقرأ أباه بدلاً من إياه . على ان هناك بعض الآيات التي تؤدي فيها هذه الاختلافات البسيطة إلى دلالات متناقضة ، كما في الآية : « يا قوم انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا انفسكم ذلكم خير لكم »[4] في هذه الآية قد نقرأ « أقيلوا انفسكم » بدل « اقتلوا »[5]

- دعوة القرآن في كثير من آياته إلى الاجتهاد في استنباط المعاني المحتجبة وراء ظاهر الآيات : « فاعتبروا يا أولي الأبصار »[6]؛ « وما يعلم تأويله إلا الله »[7] ، « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون »[8] « ليتدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب »[9] . . . وغيرها كثير مما يدعو للتأمل والكشف

(١) التوحيدي ، ابو حيان : البحر المحيط (القاهرة ، ١٣٢٨ هـ) ، ج ١ ، ص ١٣ .
(٢) الاعراف : ٥٧ ؛
(٣) التوبة : ١١٤ .
(٤) البقرة : ٥٤ .
(٥) قا : جولدتسيهر : مذاهب التفسير الاسلامي ، ترجمة عبد الحليم النجار (القاهرة ، ١٩٥٥) ، ص ٨ .
(٦) الحشر : ٢ .
(٧) آل عمران : ٧ .
(٨) الزمر : ٩ .
(٩) ص : ٢٩ .

والتفكر في ما يكمن وراء ظاهر الأيات .

ـ كما في الأيات ، دعت الأحاديث كذلك إلى معرفة ما وراء الأيات : « ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ومطلع » .

ـ اختلاف العلماء في المقدار الذي بيّنه النبي لأصحابه من القـرآن : منهم من ذهب الى أن النبي بيّن لأصحابه كل معاني القرآن ، كابن تيمية [1] مثلاً . حجته في ذلك الآية :

﴿ لتبين للناس ما نزّل إليهم ﴾ [2] في حين ذهب آخرون إلى أن النبي لم يبين لأصحابه من معاني القـرآن الا القليل [3] ، فمن اقتصر على المنقول اليه فقد ترك كثيراً مما يحتاج اليه ، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط [4] .

ـ اما العامل الأكثر اهمية في وجوب التفسير ، فهو انضواء شعوب غير عربية تحت لواء الاسلام ، تجهل لغة القرآن . هذه الشعوب بحاجة لمعرفة دينها ومبادئه . يضاف إلى ذلك ان صلة الاسلام بالحياة ، ومنزلة القرآن من حيث هو مرجع للمسلمين في مختلف شؤونهم ، جعلت تدرّج الحياة ينعكس جلياً على القرآن ، ويوجه التفسير وجهات متعددة استلزمتها متطلبات الحياة وضرورات التجديد [5] .

وأمام تفسير الشهيد الصدر ، نضيف إلى هذه الدواعي واحداً ذا وجهين :

---

(١) ابن تيمية : مقدمة في اصول التفسير (القاهرة ١٣٩٧ هـ) ، ص ٥ .

(٢) النحل : ٤٤ .

(٣) السيوطي ، جلال الدين : الاتقان (القاهرة ١٩٦٧) ، ج ١ ، ص ٣ ـ ٤ .

(٤) الراغب الاصفهاني : مقدمة التفسير (القاهرة ١٣٢٩ هـ) ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣ .

(٥) قا : عاصي ، حسن : التفسير القرآني واللغة الصوفية في فلسفة ابن سينا المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر (بيروت ، ١٩٨٤) ، ص ١٥ ـ ١٦ .

ـ اعادة النظر في كل التفاسير السابقة والتي يضعها السيد محمد الباقر تحت عنوان التفسيرالتجزيئي ، ادت إلى سلبية ساهمت ، من خلال التناقض والتباين ، في بروز غير مذهب في الاسلام .

فالتفسير اتاح لكل مفسر تبرير مذهبه واتجاهه من خلال اسناد رأيه إلى القرآن ، مثل مسائل الجبر والاختيار وما عداها [1] .

ـ وجوب ايجاد بديل لهذه التفاسير هو المنهج الموضوعي الذي يقترحه السيد الشهيد الصدر لتلافي سلبية التفاسير السابقة من جهة ، والكشف عن قيمومة النظرية القرآنية من جهة ثانية ؛ ومواكبة تلك النظرية للحياة في شتى الميادين من خلال استنطاق الآيات وفهمها فهما علمياً وتحليلها تحليلاً يواكب الحياة في ما يجابهها من نظريات وأفكار تطرح بدائل عنها [2] .

تدرج التفسير وأنواعه : زمن النبي لم تكن هناك حاجة للتفسير ، حيث كان (ص) يبين لأصحابه كل ما يحتاجون اليه من دلالات الآيات . اتى بعده الصحابة يفسرون بما أثر عنه فسمى تفسيرهم بالمأثور او ما عرف بأسباب النزول . تجدر الاشارة هنا إلى انه حتى عهد متقدم من القرن الثاني للهجرةكان ينظر إلى التفسير بعين الارتياب ، حتى ان الممثلين الأتقياء للمصالح الدينية وضعوا علامات الانذار والتحذير ، فقد رفض عبيدة بن قيس العوفي (ت ٧٢ هـ) ، من اصحاب عبدالله بن مسعود ، ان يذكر شيئاً عن اسباب النزول قائلا : **« عليك باتقاء الله والسداد ، فقد ذهب الذين كانوا يعلمون فيم انزل القرآن »** [3] .

بعدها اخذ التفسير يستند إلى القصة والأسطورة ، واذا ورد التحذير من

---

(١) الصدر ، محمد باقر : المدرسة القرآنية ، دار التعارف للمطبوعات .

(٢) نفسه ـ في فصول متفرقة .

(٣) أبن سعد : الطبقات ، ج ٦ ، ص ٦٧ .

التفسير فلأن القرآن لا يجوز تفسيره بالرأي ، اي بالتفكير الذاتي ، ولا بالهوى اي الميل الاختياري .

بعد ذلك تدرج التفسير ، حيث ان علوما عقلية ونقلية وجهت التفسير وجهات مختلفة ، اضافة إلى ان مقاصد وأغراضا سياسية في الحياة العملية ساهمت في توجيه التفسير ، فتركت كتباً ومناهج عديدة اثرت في مجرى الحياة والثقافة الاسلامية تأثيراً قوياً وفعالاً . فكانت الوان من التفسير حيث ان كل واحدة من الفرق الاسلامية كانت تتجه لتصحيح عقائدها على النص القرآني وتتخذ هذا النص سندا على موافقة مبادئها للاسلام ، ومطابقتها لما جاء به الرسول . ونتج من ذلك انواع من التفسير نذكر منها :

ـ التفسير بالمأثور : هذا التفسير ، سبقت الاشارة اليه ، فيه يستند المفسر إلى ما جاء في القرآن أو السنة أو كلام الصحابة . من عيناته تفسير الامام البغوي (١) .

ـ التفسير بالرأي : حيث يجتهد المفسر برأيه بعد ان تكون قد اجتمعت اليه شروط عدة ، منها معرفة كلام العرب والوقوف على اسباب النزول وغيرها من شرائط التفسير . من عيناته تفسير الرازي (ت ٥٤٤ هـ) (٢) .

ـ التفسير الفقهي : برز هذا اللون من التفسير عندما تعقدت العلاقات الانسانية ؛ ولما كانت الأحكام الفقهية متصلة بمصالح العباد في حياتهم وآخرتهم ، بررت الحاجة إلى هذا اللون من التفسير ، امام تعدد الاتجاهات والاجتهادات . من عينات هذا التفسير تفسير الجصاص (٣) .

ـ التفسير الصوفي : هذا التفسير ينحصر بجمع ما تيسر من آراء الصوفية

---

(١) قا :محمود،منيع عبد الحليم : مناهج المفسربن (القاهرة ـ بيروت ١٩٧٨) ص ١٣١ .

(٢) نفسه ، ص ١٤٥ .

(٣) نفسه ، ص ٦١ .

حول آيات القرآن . من عيناته تفسير السلمي [1] .

ـ التفسير الفلسفي : هو تفسير عامودي يغوص إلى عمق الآية ، ليستخرج منها ما يوافق فلسفة المفسر وعقلانيته ، حيث يستند إلى الفكر والمنطق . من عيناته تفسير ابن سينا [2] .

وهناك كذلك التفاسير العلمية والاجتماعية و . . . و . . .

قيمة هذه التفاسير : هذه التفاسير ، على تعددها وتباين آراء اصحابها ، تلتقي عند قاسم مشترك يجمع بينها . إنها احادية الجانب ؛ تعبير عن حاجة ، وسند لنظرية . وكما انها تبقى خاضعة للمبادىء التي تتحكم في كل تفسير غير مقيد بالتاريخ والظروف [3] .

طبيعة التفسير عند الشهيد الصدر والحاجة إليه : كان التفسير في البداية يستهدف فهم مدلول الله ، ذلك المفهوم وان بدا واضحاً متيسراً للكثير من الناس ، إلا انه لم يبق على وضوحه بسبب تعقد اللفظ من حيث المعنى ، ومن ثم ازدياد الفاصل الزمني . وكما سبقت الاشارة ، فقد نتج عن ذلك تراكم القدرات والتجارب وتطور الأحداث والأوضاع [4] . . ولم يبق التفسير التجزيئي يقتصر على آيات دون غيرها ، وانما توسع وتكامل ليشمل القرآن بأكمله ، بدءاً من سورة الفاتحة حتى سورة الناس .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : طالما ان النبي اعطى النظرية القرآنية بمجملها ، فما هي الحاجة إلى استحصال هذه النظريات ؟

على ذلك يجيب الشهيد الصدر بأن انسان العهود الاسلامية لم تكن لديه اي حاجة للوقوف على هذه النظريات القرآنية ، كان يعيشها ، يعرفها معرفة

---

(١) نفسه ، ص ٧٣ .
(٢) التفسير القرآني واللغة الصوفية في فلسفة ابن سينا ، ص ٢٤ و ٢٥ بعدها .
(٣) نفسه ، ص ٢١ .
(٤) المدرسة القرآنية .

اجمالية ارتكازية من خلال الواقع الاسلامي القائم ، ذلك الواقع الذي تنتفي فيه اي حاجة للانسان في معرفة النظريات والمفاهيم .

ولكن الحاجة إلى استخلاص تلك النظريات والمواقف تبرز اليوم مع بروز النظريات الحديثة ، من خلال التفاعل بين انسان العالم الاسلامي وانسان العالم الغربي بكل ما يملك من رصيد عظيم وثقافة متنوعة في مختلف مجالات المعرفة البشرية[1] . هذا التفاعل الذي وجد فيه المسلم نفسه امام نظريات كثيرة في مختلف مجالات الحياة ؛ رأى نفسه ملزماً في تحديد موقف الاسلام من هذه النظريات ؛ وكانت وسيلته استنطاق نصوص الاسلام ، قرآناً وسنة وتراثاً ، والتوغل في اعماق هذه النصوص ليصل إلى مواقف الاسلام الحقيقية سلباً وإيجاباً ؛ ولكي يكتشف نظريات الاسلام التي تعالج المواضيع عينها ، التي عالجتها التجارب البشرية الذكية في شتى مناحي الحياة .

التفسير في مفهوم الشهيد الصدر : يميز السيد محمد باقر الصدر بين منهجين في التفسير : التفسير التجزئي والتفسير التوحيدي الموضوعي ، هذان المنهجان على رغم تباينهما ، متكاملان .

أ ـ التفسير التجزيئي : يقصد السيد محمد باقر الصدر بهذه التسمية تناول جزء من القرآن : يأخذ الاية منفصلة ويعمد إلى تفسيرها . قد يحتاج المفسر هنا اللجوء إلى آيات اخرى وقد يقود ذلك إلى استخلاص دلالات للقرآن ، الا انها تبقى بنظرة تجزيئية : معارف ومدلولات ، تناثر وتراكم عددي ، من دون اي ارتباط يقودنا إلى تحديد نظرية قرآنية لكل مجال من مجالات الحياة[2] .

شيوعه : شاع هذا التفسير وسيطر على الساحة قروناً عديدة . ابرز العوامل التي ساهمت في شيوعه النزعة الروائية والحديثية للتفسير . فالتفسير في

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه .

البداية كان شعبة من الحديث : ماثورا كان او ما عرف باسباب النـزول . كان الحديث الاساس الوحيد تقريبا ، يضاف اليه بعض المعلومات اللغوية والادبية والتاريخية [1] .

قيمة التفسير التجزيئي واثره : على رغم شيوع هذا المنهج في التفسير ، فان اثره ، برأي السيد الصدر ، كان سلبيا ، من نتيجته التناقض والتباين اللذين كانا سببا في بروز غير مذهب في الاسلام . اتاح المنهج التجزيئي لكل مفسر تبرير مذهبه واتجاهه من خلال اسناد رأيه إلى القرآن ، مع ما يتبع ذلك من جمع للانصار والاشباع حول المفسر[2] ولعل المسائل الكلامية من جبر واختيار وما عداها هي خير مثال على صحة ما نقول .

ب ـ التفسير التوحيدي الموضوعي : يحرص السيد الصدر على اظهار ما يرمي اليه من مصطلح الموضوعية لئلا يلتبس بين الدلالة التي يعطيه اياها وبين الدلالة الشائعة . فيوضح انه لا يقصد الموضوعية بدلالتها مقابل الذاتية ، وانما الموضوعي نسبة إلى الموضوع . فالتفسير الموضوعي هو محاولة القيام بدراسة المواضيع القرآنية عقائدية كانت ، اجتماعية او كونية وما إلى ذلك . كأن تتناول مثلا عقيدة التوحيد في القرآن ، فتكون موضوعا يتجه التفسير إلى استنباطه من مدلولات الآيات ومعانيها . كذلك النبوة ، الاقتصاد ، . . ، . . [3] .

غاية التفسير الموضوعي وقيمته : بخلاف التفسير التجزيئي يرمي التفسير الموضوعي إلى تحديد موقف نظرتي للقرآن ، وبالتالي للرسالة الاسلامية من خلال تناوله لواحد من مواضيع الحياة والكون .

نقطة الانطلاق في هذا الاتجاه هي الواقع والحياة : يبدأ المفسر من الواقع وينتهي إلى القرآن بخلاف التفسير التجزيئي الذي يبدأ بالقرآن وينتهي

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه .

بالقرآن ، مقفل ، منعزل عن واقع الحياة [1] .

التفسير الموضوعي تفسير جدلي يمنح القرآن قدرة على القيمومة ، على العطاء الدائم والابداع في مواكبة الحياة ، في حين تقصر اللغة عن الاتجاه بخط مواز ، طاقة اللغة محدودة بخلاف كلمات الله :

« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي » [2] .

المصطلحات التي نقف عليها في الكلام على هذا الاتجاه في التفسير : الحوار ، الاستنطاق ، الجدلية ، مواكبة الحياة . هذه المصطلحات ترد في صلب اية نظرية معاصرة ، وهذا ما يضع النظرية القرآنية في مكانها الطبيعي في مجابهة التيارات والافكار السائدة ، خصوصا عندما ينطلق من الواقع والحياة ، إلى تزوده بخبرات التجربة البشرية .

موضوعية التفسير تكسب افقا اوسع وعطاء ارحب واكثر من خلال انطلاقة من التجربة البشرية ، يزداد غنى بما تقدمه تلك التجربة من مواد . من هنا فانه السبيل الوحيد للحصول على النظريات الاساسية للاسلام تجاه مواضيع الحياة المختلفة .

شروط التفسير في كل من المنهجين : من المتعارف عليه في اوساط المفسرين ان شروط التفسير ، لدى توافرها ، تعطي المفسر الحق في تفسيره ، او لا يجوز ان يدعي المعرفة اي انسان . المفسر يجب ان تتوفر فيه شروط عددها التفتازاني في خمسة عشر علما لا يكون مفسرا الا من توفرت فيه [3] اللغة ، النحو ، التعريف ، الاشتقاق ، المعاني ، البديع ، القراءات ، اصول الدين ، الفقه ، اسباب النزول ، القصص ، الناسخ والمنسوخ ، الحديث إضافة إلى

---

(١) نفسه .

(٢) الكهف : ١٠٩ .

(٣) قا : القاموس الاسلامي (القاهرة ١٩٦٣) ، م ١ ، مادة تفسير ، ص ٤٨١ .

الموهبة والاستعداد الشخصي .

اما عند الباقر ، فكما تفسيره كذلك هي شروط تفسيره مختلفة : ان يحمل المفسر كل تراث البشرية الذي عاشه ، يحمل افكار عصره ، يحمل المقولات التي تعلمها في تجربته البشرية ، ثم يضعها بين يدي القرآن ليحكم على هذه الحصيلة بما يمكن لهذا المفسر ان يفهمه ، ان يستشفه ويستنطقه ، ان يتبينه من خلال مجموعة اياته (١)

بين التفسيرين • على رغم تمييزه بين الاتجاهين في التفسير ، وتباين كل منهما في النتيجة بين سلبية وايجابية ، فان الشهيد الصدر لا يقول باستقلالهما . لا يقول باستغناء الواحد عن الاخر : الموضوعي يحتاج في سبيل تكوين نظريته إلى تحديد مدلولات تجزيئية يتعامل معها ضمن اطار الموضوع الذي يتبناه ، في حين ان التفسير التجزيئي يقف ، من دون شك ، على حقائق قرآنية من حقائق الحياة .

يختلف الاتجاهان في الملامح والاهداف ويتكاملان في الحصيلة الفكرية الواحدة .

المفسر في الاتجاه التجزيئي يستمع : النص يتحدث وهو يستمع ، دوره هنا سلبي (٢) . القرآن هو المعطي ، عطاؤه بقدر استيعاب المفسر من خلال سعة افقه وانفتاح ذهنه وصفاء فكره ، واحاطته باداب اللغة واساليبها ، اي من خلال توافر الشروط المتعارف عليها لكل مفسر .

اما المفسر في الاتجاه الموضوعي ينطلق من واقع الحياة ، يركز نظره على واحد من موضوعات الحياة في اي ميدان يشاء : يرصد ما وصلت اليه تجارب الانسان وفكره حول ذلك الموضوع من مشاكل وما قدمه الفكر الانساني من

---

(١) المدرسة القرآنية .

(٢) نفسه .

حلول ، وما طرحه التطبيق التاريخي من اسئلة ونقاط كل ذلك يشكل نقطة انطلاق يصل بعدها إلى الآيات القرآنية لا ليستمع ، كما في الاتجاه التجزيئي ، وانما ليطرح موضوعا جاهزا مشربا بعدد كبير من الافكار والمواقف البشرية ، ينظر اليها من خلال القرآن ، حيث يدور حوار بين المفسر والنص القرآني [1] . سؤال وجواب ، المفسر يسأل والقرآن يجيب في ضوء الحصيلة التي استطاع ان يجمعها من خلال التجارب البشرية ، من خلال اعمال الخطأ والصواب التي مارسها المفكرون على الارض .

هنا يصل المفسر إلى استنباط موقف القرآن من الموضوع المطروح وما يمكنه استلهامه في النص من نظرية .

من خلال هذا المنهج في التفسير نصل إلى نتائج ترتبط بتيار التجربة البشرية ويتحرك معها ، يواكب صيرورتها . نتائج عبارة عن معالم واتجاهات قرآنية تتجدد من خلالها النظرية الاسلامية بشأن مواضيع الحياة .

واذا كانت السلبية هي خاصة التفسير التجزيئي ، فان التفسير الموضوعي هنا ، المستند إلى الحوار مع الايات واستنطاقها ، هو توظيف هادف للنص القرآني في سبيل الكشف عن واحدة من حقائق الحياة الكبرى .

المفسر في الاتجاه التجزيئي يبدأ بالقرآن وينتهي بالقرآن : يستمع يسجل ، يخلي ذهنه من اية سوابق .

التفسير الموضوعي يتجاوز التجزيئي خطوة : فاذا كان التجزيئي يكتفي بابراز المدلولات التفصيلية للايات القرآنية ، فان الموضوعي يتطلع ، اضافة إلى ذلك ، إلى ما هو اوسع ، فيحاول ادراك اوجه العلاقة بالمدلولات التفصيلية ليصل إلى مركب نظري قرآني يشتمل في اطاره على كل واحد من المدلولات التفصيلية .

بمعنى اخر ، يرمي إلى التعبير عن موقف القرآن ازاء واحد من موضوعات

(١) نفسه .

الحياة ، وهذه هي الدلالة التي يرمي إليها السيد من خلال استعمال المصطلح .

اما كلمة توحيدي فيعبر عنها الشهيد الصدر بالتوحيد بين التجربة البشرية والقرآن : لا تخضع هذه لذاك ولا العكس ، وصولا إلى استخراج المفهوم القرآني الذي يحدد موقف الاسلام تجاه هذه التجربة او المقولة الفكرية التي ادخلها في سياق بحثه [1] .

كلمة في تفسير الشهيد الصدر : ذاك هو تفسير السيد الصدر « موضوعي » ، واقعي ، حياتي ، تفسير جدلي . واذا كان التفسير التجزيئي بكل ما يندرج تحته من تفاسير ، احادي الجانب ، تلبية لحاجة وسندا لنظرية ، فان تفسير الباقر هو كذلك . الا ان ما يعطيه قيمة هو انه لم يلغ التفسير التجزيئي ولم يسقط اهميته ، وانما اعتبر الباقر نهجه خطوة متقدمة على ذلك التفسير التجزيئي .

وما يزيد في قيمته التصاقه بالحياة . ومن خلال مصطلحاته : تراث البشرية ، التجربة الانسانية ، افكار العصر ، من خلال تلك المصطلحات يضع السيد الصدر النظرية القرآنية في مكانها الطبيعي في مجابهة التحدي الايديولوجي القائم .

عينات من تفسير الشهيد الصدر : لو اردنا الاستفاضة في عرض عينات من تفسير السيد الصدر لاوردنا مؤلفاته بكاملها من فلسفة واقتصاد ومجتمع ومنطق و . . و . . حيث انها كلها تستند إلى تفسيره . لكن ما نورده هنا هو على سبيل المثال ليس الا .

أ ـ « وتلك الايام نداولها بين الناس » : « هذه القضية في الحقيقة ترتبط بسنن التاريخ ، المسلمون انتصروا في بدر حينما كانت الشروط الموضوعية للنصر بحسب منطق سنن التاريخ تفرض ان ينتصروا ، وخسروا المعركة في احد حينما كانت

---

(1) نفسه .

الشروط الموضوعية في معركة احد تفرض عليهم ان يخسروا المعركة » (المدرسة القرآنية) ص ٤٧ وما بعدها .

ب ـ « ولكل امة اجل فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » : « الاجل اضيف إلى الامة ، إلى الوجود المجموعي للناس ، لا إلى هذا الفرد بالذات او هذا الفرد بالذات ، اذن هناك وراء الاجل المحدود المحتوم لكل انسان بوصفه الفردي ، هناك اجل اخر وميقات اخر للوجود الاجتماعي لهؤلاء الافراد ، للامة بوصفها مجتمعا ينشىء ما بين افراده العلاقات والصلات القائمة على اساس مجموعة من الافكار والمبادىء المستمرة بمجموعة من القوى والقابليات . هذا المجتمع الذي يعبر عنه القرآن الكريم بالامة ، هذا له اجل ، له موت ، له حياة ، له حركة ، كما ان الفرد يتحرك فيكون حيا ثم يموت ، كذلك الامة تكون حية ثم تموت ، وكما ان موت الفرد يخضع لاجل ولقانون ولناموس كذلك الامم ايضا لها اجالها المضبوطة » .

(المدرسة القرآنية) ص ٥٠ وما بعدها .

جـ ـ « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » « هذه الآية واضحة جداً في المفهوم الذي اعطيناه ، وهو ان المحتوى الداخلي للانسان هو القاعدة والاساس للبناء العلوي . للحركة التاريخية . لأن الآية الكريمة تتحدث عن تغييرين : احدهما تغيير القوم « ان الله لا يغير ما بقوم » يعني تغيير اوضاع القوم ، شؤون القوم ، الابنية العلوية للقوم ، ظواهر القوم ، هذه لا تتغير حتى يتغيرما بانفسهم . اذن التغيير الاساسي هو تغيير ما بنفس القوم والتغيير التابع المترتب على ذلك هو تغيير حالة القوم ، النوعية ، التاريخية ، الاجتماعية . . » .

(المدرسة القرآنية) ، ص ٥٦ .

تعريفات في تفسير السيد الصدر

ـ الاتجاه التجزيئي في التفسير : « المنهج الـذي يتناول المفسر ضمن اطـاره القرآن الكريم آية فآية ، وفقا لتسلسل تدوين الايات في المصحف الشريف » .

ـ حصيلة تفسـير تجزيئي : « مجمـوعة مـدلولات القـرآن الكريم ملحـوظة بنـظرة تجزيئيـة عدد كبـير من المعارف والمـدلولات القـرآنية ولكن في حـالة تنـاثر وتراكم عددي » .

ـ الاتجاه الموضوعي في التفسير : « يحاول القيام بالدراسة القرآنية لموضـوع من مـوضـوعـات الحيـاة العقـائـديـة او الاجتـماعيـة او الكـونيـة فيبـين ويبحث ويدرس » .

ـ هـدف التفسير المـوضوعي : « تحـديد مـوقف نظري للقـرآن الكـريم ، وبالتالي للرسالة الاسلامية من ذلك الموضوع من موضوعات الحياة او الكون » .

ـ الدراسة الموضوعية : « تطرح موضوعا من موضوعات الحيـاة العقائـدية او الاجتماعية او الكـونية ، وتتجـه إلى درسه وتقييمـه من زاوية قـرآنية للخـروج بنظرية قرآنية بصدده » .

ـ المركب النظري القـرآني (النظريـة) : « يكون معـبرا عن موقف قـرآني تجاه موضوع من موضوعات الحياة العقائدية او الاجتماعية او الكونية » .

ـ المـوضوعيـة : « تبدأ من المـوضوع ، من الـواقع الخـارجي ، من الشيء

الخارجي ، وتعود إلى القرآن الكريم . تختار مجموعة من الآيات تشترك في موضوع واحد يقوم بعملية توحيد بين مدلولاتها من اجل ان نستخرج نظرية قرآنية شاملة بالنسبة إلى ذلك الموضوع » .

ـ تفسير موضوعي : « يبدأ من الموضوع الخارجي وينتهي الى القرآن الكريم . . يختار مجموعة من الآيات تشترك في موضوع واحد » .

ـ تفسير توحيدي : « يوحد بين التجربة البشرية وبين القرآن الكريم . . يوحد بين مدلولات الآيات ضمن مركب نظري واحد » .

- ١ -

التفسير القرآني
بين التجزيء والتوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم
وأفضل الصلوات على سيد
الخلق محمد و آله الطيبين الطاهرين .

ربنا فقّهنا في كتابك ، واكشف عن قلوبنا ظلمات الذنوب لكي نتفهم آياتك ، وأزح عن بصائرنا غشاوة الدنيا وبريقها الكاذب لكي نملأ نفوسنا بهداك ، واجعلنا من حملة قرآنك ، وسنة نبيك ، والسائرين على طريق طاعتك .

رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[1] ، رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِن نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا ، رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا ، رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا ، أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ[2] رَبَّنا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ ، وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ[3] .

لا شك في تنوع التفسير واختلاف مذاهبه وتعدد مدارسه ، والتباين في كثير من الاحيان بين اهتماماته واتجاهاته : فهناك التفسير الذي يهتم بالجانب اللفظي والادبي والبلاغي من النص القرآني . وهناك التفسير الذي يهتم بجانب المحتوى والمعنى والمضمون . وهناك التفسير الذي يفسر النص القرآني بالمأثور عن المعصومين عليهم السلام ، أو بالمأثور عن الصحابة والتابعين . وهناك التفسير الذي يعتمد العقل ايضاً كأداة للتفسير وفهم كتاب الله سبحانه . وهناك التفسير

(١) سورة التحريم آية / ٨ .
(٢) سورة البقرة آية / ٢٨٦ .
(٣) سورة الحشر آية / ١٠ .

المتحيز ، الذي يتخذ مواقف مذهبية مسبقة ، يحاول أن يطبق النص القرآني على أساسها . وهناك التفسير غير المتحيز ، الذي يحاول أن يستنطق القرآن نفسه ، ويطبق الرأي على القرآن لا القرآن على الرأي . إلى غير ذلك من الاتجاهات المختلفة في التفسير الاسلامي .

الا ان الذي يهمنا بصورة خاصة ونحن على أبواب هذه الدراسة القرآنية ، أن نركز على ابراز اتجاهين رئيسيين لحركة التفسير في الفكر الاسلامي :

أحدهما : « الاتجاه التجزيئي في التفسير » .

الثاني : « الاتجاه التوحيدي أو الموضوعي في التفسير » .

الاتجاه التجزيئي

ونعني بالاتجاه التجزيئي : المنهج الذي يتناول المفسر القرآن الكريم ضمن اطاره آية فآية ، وفقاً لتسلسل تدوين الآيات في المصحف الشريف .

والمفسر في إطار هذا المنهج ، يسير مع المصحف ويفسر قطعاته تدريجاً على ضوء ما يؤمن به من أدوات ووسائل للتفسير من الظهور ، أو المأثور من الاحاديث ، أو بلحاظ الآيات الاخرى التي تشترك مع تلك الآية في مصطلح أو مفهوم ، بالقدر الذي يلقي ضوءاً على مدلول القطعة القرآنية التي يراد تفسيرها ، مع أخذ السياق الذي وقعت تلك القطعة ضمنه بعين الاعتبار في كل تلك الحالات .

ونحن حينما نتحدث عن التفسير التجزيئي ، نقدمه في أوسع وأكمل صوره التي انتهى إليها . حيث نجد التفسير التجزيئي تدرّج تاريخيا إلى أن وصل بهذه الطريقة التجزيئية إلى مستوى الاستيعاب الشامل للقرآن الكريم .

وكان قد بدأ في عصر الصحابة التابعين ، على مستوى شرح تجزيئي لبعض الآيات القرآنية وتفسير لمفرداتها ، وكلما امتد الزمن ، ازدادت الحاجة إلى

تفسير المزيد من الآيات ، إلى أن انتهى إلى الصورة التي قدم فيها ابن ماجة والطبري وغيرهما ، ممن كتب في التفسير في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع . وكانت تمثل أوسع صورة للمنهج التجزيئي في التفسير .

فالمنهج التجزيئي في التفسير ، حيث إنه كان يستهدف فهم مدلول « الله » ، وحيث ان فهم مدلول « الله » كان في البداية متيسراً لعدد كبير من الناس ، ثم بدأ اللفظ يتعقد من حيث المعنى بمرور الزمن ، وازدياد الفاصل ، وتراكم القدرات والتجارب ، وتطور الاحداث والاوضاع .

من هنا توسع التفسير التجزيئي ، تبعاً لما اعترض النص القرآني من غموض وشك في تحديد مفهوم « الله » ، حتى تكامل في الطريقة التي نراها في موسوعات التفسير ، حيث ان المفسر يبدأ من الآية الاولى من سورة الفاتحة إلى سورة الناس ، فيفسر القرآن آية آية ، لان الكثير من الآيات بمرور الزمن ، أصبح معناها ومدلولها اللفظي بحاجة إلى إبراز أو تجربة أو تأكيد ونحو ذلك ، هذا هو التفسير التجزيئي .

طبعاً نحن لا نعني بالتجزيئية لمثل هذا المنهج التفسيري ، أن المفسر يقطع نظره عن سائر الآيات ولا يستعين بها في فهم الآية المطروحة للبحث ، بل انه قد يستعين بآيات أخرى في هذا المجال ، كما يستعين بالاحاديث والروايات ، ولكن هذه الاستعانة تتم بقصد الكشف عن المدلول اللفظي الذي تحمله الآية المطروحة للبحث ، فالهدف في كل خطوة من هذا التفسير ، فهم مدلول الآية التي يواجهها المفسر بكل الوسائل الممكنة ، أي أن الهدف « هدف تجزيئي » ، لأنه يقف دائما عند حدود فهم هذا الجزء أو ذاك من النص القرآني ، ولا يتجاوز ذلك غالبا ، وحصيلة تفسير تجزيئي للقرآن الكريم كله ، تساوي على أفضل تقدير ، مجموعة مدلولات القرآن الكريم ملحوظة بنظر تجزيئية أيضا ، أي أننا سوف نحصل على عدد كبير من المعارف والمدلولات القرآنية ، ولكن في حالة تناثر وتراكم عددي ، دون أن نكتشف أوجه الارتباط ، والتركيب العضوي لهذه

المجاميع من الافكار ، ودون أن نحدد في نهاية المطاف ، نظرية قرآنية لكل مجال من مجالات الحياة ، فهناك تراكم عددي للمعلومات ، الا أن من الممكن على اساس مجموع ما بين هذه المعلومات من الروابط والعلاقات ان نستخلص نظرية قرآنية مستوعبة لمختلف المجالات والمواضيع ، مع ان ذلك اساساً غير مستهدف بالذات في منهج التفسير التجزيئي وإن تحقق احياناً بشكل عَرَضي .

وقد أدت حالة التناثر ونزعة الاتجاه التجزيئي ، إلى ظهور التناقضات المذهبية العديدة في الحياة الاسلامية ، إذ كان يكفي أن يجد هذا المفسر او ذاك ، آية تبرر مذهبه لكي يعلن عنه ويجمع حوله الانصار والاشياع ، كما وقع في كثير من المسائل الكلامية ، كمسألة الجبر والتفويض مثلا .

بينما كان بالامكان تفادي كثير من هذه التناقضات ، لو أن المفسر التجزيئي خطا خطوة أخرى ، ولم يقتصر على هذا التجميع العددي ، كما نرى ذلك في الاتجاه الثاني .

الاتجاه التوحيدي

الاتجاه الثاني : وهو الاتجاه التوحيدي أو الموضوعي في التفسير .

هذا الاتجاه ، لا يتناول تفسير القرآن آية فآية بالطريقة التي يمارسها التفسير التجزيئي ، بل تقوم فيه الدراسة القرآنية على أساس الموضوعات في حقول العقيدة والاجتماع وغيرهما .

فمثلا نجد الباحث في هذا الإتجاه ، يبحث عقيدة التوحيد ، أو النبوة ، أو المذهب الاقتصادي ، أو سنن التاريخ ، أو عن السماوات والارض ، كل ذلك في القرآن الكريم ، وهكذا .

ويستهدف التفسير التوحيدي الموضوعي من القيام بهذه الدراسات ، تحديد موقف نظري للقرآن الكريم ، وبالتالي للرسالة الاسلامية من ذلك الموضوع من موضوعات البحث في الحياة ، أو الكون ، أو الإنسان .

وينبغي أن يكـون واضحا ، أن الفصـل بين الاتجاهـين المـذكـورين ليس حديا على مستوى الواقع العملي والممارسة التاريخيـة لعملية التفسـير ، لأن الاتجاه المـوضوعي بحـاجة طبعـاً إلى تحديـد المدلـولات التجزيئيـة في الآيات التي يـريد التعامل معها ، ضمن اطار الموضوع الـذي يتبناه . كـما أن الباحث وفق الاتجـاه التجزيئي ، قد يعثر أثناء عملية بحثه على حقيقة قرآنية من حقائق الحياة الأخرى ، ولكن الاتجاهين على أي حال ، يظلان على الرغم من ذلك مختلفين في ملامحهما وأهدافهما وحصيلتهما الفكرية .

ومما ساعد على شيوع الاتجاه التجزيئي للتفسير وسيطرته على الساحة قرونا عديدة ، النزعة الروائية والحديثية للتفسـير ، حيث إن التفسير لم يكن في البـداية الا شعبة من الحديث بصورة أو بأخرى ، إذ كان الحديث هو الاساس الوحيد له تقريبا ، مضـافا إلى بعض المعلومـات اللغويـة والادبية والتـاريخية ، التي اعتمـد عليها التفسير طيلة فترة طويلة من الزمن .

ومن هنا لم يكن بامكان تفسير يقف عنـد حدود المـأثور من الـروايات عن الرسـول والأئمـة ، والصحـابـة والتـابعـين ، تلك الـروايـات التي كـانت تثـيرهـا استفهامات عقلية على الأغلب من قبل السائلين ، ان يتقدم خطوة أخرى ، وأن يحاول تركيب مدلولات القرآن والمقارنة بينها ، واستخراج النظريـة من وراء هذه المدلولات اللفظية .

التفسـير كان بـطبعه تفسيرا لفـظيـا للمفـردات ، وشرحـاً للمستجـد من المصطلحات ، وتطبيقاً لبعض المفاهيم على اسباب النزول ، ومثـل هذه العمليـة لم يكن بـامكانها ان تقـوم بدور اجتهـادي مبـدع ، يستكشـف مـا وراء المـدلـول اللغوي واللفظي من الأفكار الاساسيـة ، التي حاول القـرآن الكريم ان يعـطيها من خلال المتناثر من آياته الشريفة .

ويمكننا ان نقرب إلى اذهانكم فكرة هـذين الاتجاهـين المختلفين في تفسـير القرآن الكريم ، بمثال من تجربتكم الفقهية ، فالفقه هو بمعنى من المعاني ، تفسير

للأحاديث الواردة عن النبي والأئمة (ع) ، ونحن نعرف من البحث الفقهي ، ان هناك كتبا فقهية شرحت الاحاديث حديثا حديثا ، وتكلمت عنه دلالة أو سنداً أو متناً ، أو دلالة وسندا ومتنا ، على اختلاف اتجاهات الشراح . كما نجد ذلك في شراح الكتب الاربعة ، وشراح الوسائل ، غير ان القسم الأعظم من الكتب الفقهية في هذا المجال ، لم تتجه هذا الاتجاه ، بل صنفت البحث إلى مسائل وفقا لوقائع الحياة ، وجعلت في اطار كل مسألة الاحاديث التي تتصل بها ، وفسرتها بالقدر الذي يلقي ضوءا على تلك المسألة ، ويؤدي إلى تحديد موقف الاسلام من تلك الواقعة التي تفترضها المسألة المذكورة ، وهذا هو الاتجاه الموضوعي على الصعيد الفقهي ، بينما ذاك هو الاتجاه التجزيئي في تفسير الاحاديث على هذا الصعيد .

كتاب الجواهر في الحقيقة ، شرح شامل لروايات الكتب الاربعة ، ولكنه ليس شرحا يبدأ بالكتب الأربعة رواية رواية ، وانما يصنف روايات الكتب الأربعة وفقاً لمواضيع الحياة ، كتاب البيع ، كتاب الجعالة ، كتاب إحياء الموات ، كتاب النكاح ، ثم يجمع تحت كل عنوان من هذه العناوين ، الروايات التي تتصل بذلك الموضوع ، ويشرحها ويقارن فيما بينها ليخرج بنظرية ، لانه لا يكتفي بأن يفهم معنى هذه الرواية فقط بصورة منفردة ، ومعنى هذه الرواية بصورة منفردة ، اذ مع هذه الحالة من الفردية ، لا يمكن ان يصل إلى الحكم الشرعي ، وإنما يصل إلى الحكم الشرعي عن طريق دراسة مجموعة من الروايات ، التي تحمل مسؤولية توضيح حكم واحد ، أو باب واحد من ابواب الحياة ، ثم عن طريق هذه الدراسة الشاملة ، يستخرج نظرية واحدة تعطى من خلال مجموعة من الروايات لا من خلال رواية رواية .

هذا هو الاتجاه الموضوعي في شرح الاحاديث .

ومن خلال المقارنة بين الدراسات القرآنية والدراسات الفقهية ، نلاحظ اختلاف مواقع الاتجاهين على الصعيدين . فبينما انتشر الاتجاه الموضوعي وساد

على الصعيد الفقهي منذ خطوات نموّه الأولى ، نجد أن الاتجاه التجزيئي للتفسير القرآني قد سيطر على الساحة عبر ثلاثة عشر قرنا تقريبا ، إذ كان كل مفسر يبدأ كما بدأ سلفه فيفسر القرآن آية آية .

وأما ما ظهر على الصعيد القرآني من دراسات تسمى بالتفسير الموضوعي احيانا ، من قبيل دراسات بعض المفسرين حول موضوعات معينة تتعلق بالقرآن الكريم ، كأسباب النزول ، أو القراءآت ، أو الناسخ والمنسوخ ، أو مجازات القرآن ، فليست من التفسير التوحيدي والموضوعي بالمعنى الذي نريده إذ إن الدراسة الموضوعية هي تلك التي تطرح موضوعاً من الموضوعات في أي حقل من حقول الانسان والكون والحياة ، وتتجه إلى درسه وتقييمه من زاوية قرآنية ، بهدف الخروج من خلاله بنظرية قرآنية محددة أزاءه في حين ان هذه الدراسات ، ليست في الحقيقة الا تجميعا عدديا لقضايا من التفسير التجزيئي ، لوحظ فيها بينها شيء من التشابه ليس إلا .

واكثر ظني ان الاتجاه التوحيدي الموضوعي في الفقه بامتداده وانتشاره ، ساعد بدرجة كبيرة ، على تطوير الفكر الفقهي وإثراء الدراسات العلمية في هذا المجال ، بقدر ما ساعد انتشار الاتجاه التجزيئي في التفسير على اعاقة الفكر الاسلامي القرآني عن النمو المكتمل ، وساعد على اكتسابه حالة تشبه الحالات التكرارية الجامدة خلال قرون متطاولة ، كما كان الحال في الفترة ما بعد تفاسير امثال الطبري والرازي والشيخ الطوسي ، على الرغم من ألوان التغير التي حفلت بها الحياة في مختلف الميادين ، وسوف يتضح إن شاء الله تعالى من خلال المقارنة بين الاتجاهين : الاتجاه التحزيئي والإتجاه التوحيدي ، السبب والسر الذي يكمن وراء هذه الظاهرة .

تساؤل وجواب

لماذا كانت الطريقة التجزيئية عائقاً عن النمو ؟ ولماذا تكون الطريقة الموضوعية والاتجاه التوحيدي عاملا في النمو والابداع وتوسيع نطاق حركة

الاجتهاد ؟ لكي نعرف لماذا كان هـذا وذاك ؟ يجب أن نكوّن انـطباعـات أوضح وأكـثر تحديـداً عن هذين الاتجـاهين : الإتجـاه التجزيئي ، والاتجـاه التـوحيـدي المـوضـوعي ، وإنمـا يتضـح ذلـك بعـد أنْ نشرح بعض أوجـه الاختـلاف بـين الاتجـاهـين . ويمكن تـوضيـح بعض أوجـه الاختـلاف بـين هـذين الإتجـاهـين التفسيريين فيما يلي :

أوجه تباين وافتراق

أولاً : إن المفسر التجزيئي ، دوره في التفسير عـلى الأغلب سلبي ، فهو يبدأ أولاً بتناول النص القـرآني المحدد ، آيـة مثلا ، أو مقـطعاً قـرآنيا ،دون أي افتراضات أو طروحات مسبقة ، ويحاول أن يحدد المدلول القرآني ، على ضوء مـا يسعفـه به اللفظ ، مـع ما يتـاح له من القـرائن المتصلة والمنفصلة ، ودور النص القرآني في مثل عمليـة التفسير هـذه ، دور المتحدث ، ودور المفسر هـو الاصغاء والتفهم ، وهذا ما نسميه بالـدور السلبي ، حيث يجلس المفسّر بين يـدي النص القـرآني ليستمع فقط بينـما يكون القـرآن ذا دور ايجابي حينئـذٍ ، بذهن مضيء ، بفكر صاف ، بروح محيطة بآداب اللغة وأسـاليبها ، وبقـدر ما يفهم هـذا المفسر من مدلول اللفظ يسجل في تفسيره .

وخلافا لذلك المفسر التوحيدي والموضوعي ، فانه لا يبدأ عمله من النص بل من واقع الحياة ، يركز نظره على موضوع من موضـوعات الحيـاة العقائـدية ، أو الاجتماعية ، أو الكونية ، ويستـوعب ما اثـارته تجارب الفكر الانسـاني حول ذلك الموضوع من مشاكل ، وما قـدمه الفكـر الانساني من حلول ، ومـا طرحـه التطبيق التاريخي من اسئلة ومن نقاط فراغ ، ثم يأخذ النص القرآني ، لا ليتخذ من نفسه بالنسبة إلى النص دور المستمع والمسجل فحسب ، بل ليطرح بين يدي النص موضوعا جاهزا مشرباً بعدد كبير من الافكار والمواقف البشرية ، ويبدأ مع النص القـرآني حـواراً عـلى شكـل سؤال وجـواب ، المفسر عـلى ضـوء الحصيلة التي جمعهـا من خلال التجـارب البشرية المعـرضة للصـواب والخـطأ يسـأل والقـرآن يجيب ، يجلس سائلاً ومستفهماً ومتدبراً ، فيبدأ مع النص القرآني حواراً حول هذا

الموضوع ، وهو يستهدف من ذلك ان يكتشف موقف القرآن الكريم من الموضوع المطروح ، والنظرية التي بامكانه أن يستلهمها من النص ، من خلال مقارنة هذا النص بما استوعبه الباحث عن الموضوع من أفكار واتجاهات .

ومن هنا كانت نتائج التفسير الموضوعي نتائج مرتبطة دائما بتيار التجربة البشرية ، لانها تمثل المعالم والاتجاهات القرآنية لتحديد النظرية الاسلامية بشأن موضوع من مواضيع الحياة .

ومن هنا ايضا ، كانت عملية التفسير الموضوعي ، عملية حوار مع القرآن الكريم واستنطاق له ، وليست مجرد استجابة سلبية ، بل استجابة فعالة وتوظيفا هادفا للنص القرآني في سبيل الكشف عن حقيقة من حقائق الحياة الكبرى .

قال أمير المؤمنين (ع) وهو يتحدث عن القرآن الكريم : « ذلك القرآن فاستنطقوه ، ولن ينطق ، ولكن أخبركم عنه ، ألا ان فيه علم ما يأتي ، والحديث عن الماضي ، ودواء دائكم ، ونظم ما بينكم »[1] . التعبير بالاستنطاق الذي جاء في كلام ابن القرآن (ع) ، أروع تعبير عن عملية التفسير الموضوعي بوصفها حواراً مع القرآن الكريم وطرحا للمشاكل الموضوعية عليه ، بقصد الحصول على الاجابة القرآنية . وليس مجرد حديث للقرآن من طرف واحد ، يقابله مجرد تسجيل لوقائعه من قِبَل المفسِّر وفق الاتجاه التجزيئي .

إذن في التفسير الموضوعي ، يلتحم القرآن مع الواقع والحياة لأن التفسير يبدأ من الواقع وينتهي إلى القرآن بوصفه القيم والشاهد الذي تحدد على ضوء مفاهيمه ونظراته الربانية أطر ما ينبغي ان تكون عليه اتجاهات الواقع الانساني . وحيث ان القرآن هو المنبع ، فهو إذن العطاء الثر والدائم والمتجدد ، والمفجر للطاقات ، لأنه كلمات الله ، وكلماته لا تنفد، بينما اللغة التي يقوم على اساس كلماتها التفسير اللغوي محدودة في الزمان والمكان ، محدودة في مدلولات الفاظها

---

(١) نهج البلاغة خطبة / ١٥٨ .

المحصورة ضمن عدد معين من الحروف الجامدة ، وهذا ما يجعل من التفسير الموضوعي التوحيدي عملية انطلاقة كبرى في تحليل الواقع الإنساني والكوني لا يحدها زمان ولا مكان ولا إطار ، لأنها تستوحي من كلمات رب الانسان والكون وخالق الزمان والمكان والحياة، وعملية تطورية مستمرة لأنها تتجه دائماً نحو المطلق، الذي هو الله ، مع ما توفره التجربة البشرية للباحث وفق هذا المنحى من التفسير ، من غناء وثراء . لا انه يبدأ من القرآن وينتهي بالقرآن ، فتكون عملية منعزلة عن الواقع منفصلة عن تراث التجربة البشرية . ومن ضم تلك التجربة البشرية إلى التأمل القرآني فيها ، يولد فهم إسلامي قرآني صحيح ، وتصاغ المفاهيم الربّانية السليمة لهذا المجتمع البشري ، كي تكون معالم في الطريق نحو قيام المجتمع العابد في الارض .

ثانياً : ان التفسير الموضوعي يتجاوز التفسير التجزيئي خطوة ، لأن التفسير التجزيئي ، يكتفي بإبراز المدلولات التفصيلية للآيات القرآنية الكريمة ، بينما التفسير الموضوعي يتطلع إلى ما هو اوسع من ذلك ، حيث نجده يحاول ان يصل إلى مركّب نظري قرآني ، يحتل في اطاره كل واحد من تلك المدلولات التفصيلية ، موقعه المناسب ، وهذا ما نسميه بلغة اليوم بالنظرية ، يصل إلى نظرية قرآنية عن النبوة ، ونظرية قرآنية عن المذهب الاقتصادي ، ونظرية قرآنية عن سنن التاريخ وهكذا . وبذلك يكون التفسير الموضوعي متقدماً خطوة على التفسير التجزيئي .

هذان فارقان رئيسيان بين الاتجاه الموضوعي في التفسير القرآني ، والاتجاه التجزيئي فيه . وقد ذكرنا آنفاً، بأن البحث الفقهي اتجه اتجاهاً موضوعياً ، بينما كان الاتجاه في التفسير تجزيئياً على الأكثر .

ولا بد ان يكون قد اتضح على ضوء الفارق الأول بين الاتجاهين الرئيسيين في التفسير ، كل من اصطلاحي الموضوعي والتوحيدي ، فاصطلاح الموضوعي هنا على ضوء الأمر الأول ، بمعنى انه يبدأ من الموضوع والواقع

الخارجي ، ويعود إلى القرآن الكريم . والتوحيدي ، باعتبار انه يوحد بين التجربة البشرية وبين القرآن الكريم ، لا بمعنى انه يخضع القرآن للتجربة البشرية ، بل بمعنى انه يوحد بينهما في سياق بحث واحد ، لكي يستخرج نتيجة هذا السياق الموحد من البحث ، المفهوم القرآني الذي يمكن ان يحدد موقف الاسلام تجاه هذه التجربة أو المقولة الفكرية التي ادخلها في سياق بحثه .

اذن التفسير موضوعي وتوحيدي على اساس الأمر الأول ، على اساس الأمر الثاني ايضاً كون التفسير موضوعياً ، باعتبار انه يختار مجموعة من الآيات تشترك في موضوع واحد . وهو توحيدي باعتبار انه يوحد بين مدلولات هذه الأيات ضمن مركب نظري واحد ، ليخلص بالتالي الى تحديد إطار نظرية واضحة ، ترسمها تلك المجموعة القرآنية ككل ، بالنسبة إلى ذلك الموضوع .

ولا نقصد بالموضوعية هنا الموضوعية في مقابل التُحَيُّز ، ليست الموضوعية بذلك المعنى من مزايا التفسير الموضوعي في مقابل التفسير التجزيئي ، الموضوعية بذلك المعنى عبارة عن الأمانة والنزاهة في البحث ، وهي بهذا المعنى مطلوبة في كلا الاتجاهين التفسيريين . . . . . وكما قلنا ، فإن الأبحاث الفقهية سارت في الاتجاه الموضوعي ، بينما الأبحاث التفسيرية سارت في الاتجاه التجزيئي ، وليس معنى ذلك بالضرورة ، أن البحث الفقهي استنفذ طاقة الاتجاه الموضوعي ، البحث الفقهي سار في الاتجاه الموضوعي ، ولكنه لم يستنفد أيضاً طاقة هذا الاتجاه بشكل مستوعب . ولذا فهو اليوم مدعو إلى أن يستنفد طاقة هذا الاتجاه أفقياً وعمودياً . أما أفقياً : فباعتبار أن الاتجاه الموضوعي كما قلنا ، عبارة عن أن يبدأ الانسان من الواقع وينتهي إلى الشريعة .

وهذا كان ديدن الفقهاء حيث نجد أن وقائع الحياة تكاد تنعكس عليهم في واقع حياتهم المعاش ، فصوّروه من خلال ما طرحوه من قضايا بأشكال متعددة ، عملوا على استنباط احكامها وحلولها من مصادرها الأصلية في الشريعة المقدسة . وهذا يبرز بوضوح ، الاتجاه الموضوعي لدى هؤلاء الفقهاء ، على

شكل جعالة ، مضاربة ، مزارعة ، مساقات ، نكاح ، لأنه يبدأ بالواقع القائم وينتهي إلى الشريعة في مقام التعرف على حكم هذا الواقع .

ولكن من الواضح ان وقائع الحياة تتجدد وتتكاثر باستمرار وتتولد ميادين جديده ، ولذا كان لا بد لهذه العملية من النمو باستمرار وتحول كل ما يستجد من وقائع الحياة إلى علماء الشريعة ليضعوا على ضوء نصوصها ما قد يجدونه لها فيها من حلول .

فمثلاً ذلك الواقع الساكن المحدود الذي كان يعيشه الشيخ الطوسي ، أو الذي كان يعيشه المحقق الحلي ، كان يفي بحاجات عصر الشيخ الطوسي ، وبحاجات عصر المحقق الحلي . لكن كم من باب وباب من أبواب الحياة فتحت بالتدريج بعد عصرَي هذين العظيمين ، مما لم يكن معروفاً في شتى الحقول ، ومن هنا ، ولكي يتمدد البحث الفقهي افقياً ، كان لا بد من عرض تلك الأبواب الجديدة في حقولها المتنوعة على الشريعة لاستنباط احكامها من نصوصها في هذا العصر وما يليه كما فعل العلماء الماضون في عصورهم الماضية .

من الناحية العمودية ايضا : لا بد من ان يتوغل هذا الاتجاه الموضوعي في الفقه ، ليصلَ إلى النظريات الاساسية ، لا أن يكتفى بالبناءات العلوية والتشريعات التفصيلية ، بل ينفذ من خلال هذه البناءات العلوية إلى النظريات الأساسية والتطورات الرئيسية ، التي تمثل وجهة نظر الاسلام ، لأننا نعلم ان كل مجموعة من التشريعات في كل باب من أبواب الحياة ترتبط بمثل تلك النظريات والتطورات . ففي مجال الحياة الاقتصادية ، ترتبط تلك الأحكام بنظرية الإسلام بالمذهب الاقتصادي الإسلامي ، وفي مجال النكاح والطلاق ، وعلاقات المرأة مع الرجل ، ترتبط بنظرياته الاساسية عن المرأة والرجل ودور كل منهما . هذه النظريات الأساسية تشكّل القواعد النظرية لهذه الأبنية العلوية ، لا بد من التوغل عمودياً أيضاً اليها ، ومحاولة اكتشافها بقدر الإمكان .

وعلى ضوء ما قدمنا من اوجه الاختلاف بين التفسير الموضوعي والتفسير التجزيئي ، تبينت عدة جوانب تدعو إلى تفضيل المنهج الموضوعي على المنهج التجزيئي في التفسير ، فان المنهج الموضوعي في التفسير على ضوء ما ذكرناه ، اوسع افقاً واكثر عطاءً باعتبار انه يتقدم خطوة على التفسير التجزيئي ، كما انه قادر على التجدد والابداع باستمرار ، باعتبار ان التجربة البشرية تغني هذا التفسير بما تقدمه من مواد تطرح بين يدي القرآن الكريم ، لكي يستطيع هذا المفسر أن يستنطق أجوبته عليها . وهذا هو الطريق الوحيد للحصول على النظريات الأساسية للإسلام وللقرآن تجاه موضوعات الحياة المختلفة .

وقد يقال : ما الضرورة إلى البحث لتحصيل هذه النظريات الاساسية واستخلاصها في النبوة مثلا ، أو في سنن التاريخ وفي التغير الاجتماعي ، أو في الاقتصاد الاسلامي وغيرها ، في حين أننا نجد بأن النبي (ص) لم يعط هذه القضايا على شكل نظريات محدودة وبصيغ عامة ، وانما اقتصر على إعطاء القرآن بهذا الترتيب للمسلمين وبهذا الشكل المتراكم ؟ .

والجواب : أن هناك اليوم ضرورة اساسية لاستخلاص وتحديد هذه النظريات ، ولا يمكن ان يفترض الاستغناء عن ذلك . إذ إن النبي (ص) كان يعطي هذه النظريات ولكن من خلال التطبيق ومن خلال المناخ القرآني العام الذي كان يبينه في الحياة الاسلامية ، وكان كل فرد مسلم في اطار هذا المناخ ، يفهم هذه النظرية ولو فهما اجماليا ارتكازيا ، لان المناخ والاطار الروحي والاجتماعي والفكري والتربوي الذي رَسَمَه النبي (ص)، كان قادرا على ان يعطي النظرة السليمة ، والقدرة السليمة على تقييم المواقع والمواقف والاحداث . واذا اردنا ان نقرب هذه الفكرة نقول :

هنالك حالتان : حالة انسان يعيش داخل عرف لغة من اللغات ، وانسان يعيش خارجه ويريد ان يفهم بأن ابناء هذه اللغة ، كيف تنتقل اذهانهم إلى المعاني المحددة من ألفاظ لغتهم .

وهنا اسلوبان : احدهما : ان نأتي بهذا الانسان ونجعله يعيش في اعماق

هذا العرف وهذه اللغة ، فترة طويلة من الزمن . وعندئذٍ سوف يتكون لديه الاطار اللغوي ، والاطار العرفي الذي يستطيع من خلاله ان يتحرك ذهنه وفقا لما يريده العرف واللغة منه ، لأن مدلولات اللغة وقواعدها تكون موجودة وجوداً إجماليا ارتكازيا في ذهنه ، اللفظة السليمة ، والتقييم السليم للكلمة الصحيحة ، وتمييزها عن الكلمة غير الصحيحة ، بينما اذا كان الانسان خارج مناخ تلك اللغة ، وأردت أن تنشيء في ذهنه القدرة على التمييز اللغوي الصحيح ، فلن يتم ذلك إلا عن طريق الرجوع إلى قواعد تلك اللغة ، حينئذ لا بد ان ترجع إلى ذلك العرف الذي تربى فيه ذلك الانسان ، لكي تستنتج منه القواعد والنظريات العامة،عيناً كما وقع بالنسبة إلى علوم العربية ، كيف أن ابن اللغة العربية لم يكن بحاجة في بداية أمره إلى أن يتعلم علوم العرب ؟ لأنه كان يعيش في أعماق عرف اللغة ، لكن بعد أن ابتعد عن تلك الأعماق واختلفت الأجواء ضعفت اللغة نتيجة تراكم لغات أخرى إندست إلى داخل حياة العرب ، بدأ هؤلاء يحتاجون إلى علم اللغة وقواعدها ، لأن الواقع الجديد لا يسعفهم بنظرة سليمة لكي يفكروا ويناقشوا ويتصرفوا لغوياً وفقا لتلك القواعد .

هذا المثال مثال تقريبي لاجل توضيح الفكرة . اذن ، الصحابة الذين عاشوا في كنف الرسول الأعظم (ص)،اذا كانوا لم يتلقوا النظريات بصيغ عامة ، فقد تلقوها تلقيا اجماليا ارتكازيا ، انتقشت في اذهانهم وسرت في افكارهم ، كان المناخ العام والاطار الاجتماعي والروحي والفكري الذي يعيشونه ، مساعدا على تفهم هذه النظريات ولو تفهما اجماليا ، وعلى توليد المقياس الصحيح في مقام التقييم . اما حيث لا يوجد ذلك المناخ ، وذلك الاطار ، تكون الحاجة إلى دراسة نظريات القرآن والاسلام ، حاجة حقيقية ملحة ، خصوصا مع بروز النظريات الحديثة ، من خلال التفاعل بين انسان العالم الاسلامي وانسان العالم الغربي بكل ما يملك من رصيد كبير وثقافة متنوعة في مختلف مجالات المعرفة البشرية ، حيث وجد الانسان المسلم نفسه امام نظريات كثيرة في مختلف مجالات

الحياة ، فكان لابد لكي يحدد موقف الاسلام من هذه النظريـات ، وان يستنطق نصوص الاسلام ، ويتـوغل في أعـماق هذه النصـوص ، لكي يصل إلى مـواقف الاسلام الحقيقية سلباً وايجاباً ، لكي يكتشف نظريات الاسلام التي تعـالج نفس هذه المواضيع التي عالجتها التجارب البشرية الذكية في مختلف مجالات الحياة .

اذن ، فالتفسير الموضوعي في المقـام ، هو افضـل الاتجاهـين في التفسير ، وليس معنى هـذه الافضلية ، استبـدال اتجاه بـاتجاه ، وطـرح التفسير التجـزيئي رأسا ، والأخذ بالتفسير الموضوعي ، وإنمـا إضافـة اتجاه إلى اتجـاه ، لان التفسير الموضوعي ليس إلا خطوة إلى الامام بالنسبة إلى التفسير التجزيئي .

اذن فالمسألة هنا تعني افتراض خطوتـين ، خطوة هي التفسـير التجزيئي ، وخطوة أخرى تنضم اليها ، هي التفسير الموضوعي .

- ٢ -

شواهد وتطبيقات

استعرضنا فيما سبق المبررات الموضوعية والفكرية لايثار التفسير الموضوعي التوحيدي على التفسير التجزيئي التقليدي وأود الآن أن أذكر مبررا عمليا لهذا الإيثار ، هو ان شوط التفسير التقليدي شوط طويل جدا ، لانه يبدأ من الفاتحة وينتهي بسورة الناس ، وهذا الشوط الطويل بحاجة من أجل اكماله إلى فترة زمنية طويلة أيضاً. ولهذا لم يحظ من علماء الاسلام الاعلام الا عدد محدود بهذا الشرف العظيم ، شرف مرافقة الكتاب الكريم من بدايته إلى نهايته . ونحن نشعر بأن هذه الايام المحدودة المتبقية لا تفي بهذا الشوط الطويل ، ولهذا كان من الافضل اختيار أشواط أقصر ، نستطيع ان نكملها في رحاب القرآن الكريم .

من هنا ، سوف نختار موضوعات متعددة في القرآن المجيد ، ونستعرض ما يتعلق بكل موضوع منها ، وما يمكن أن يلقي عليه القرآن من أضواء . وسوف نحاول أن يكون البحث مضغوطاً بقدر الامكان . لكي نستوعب أكبر عدد من المواضيع المهمة . فنقتصر على الافكار الاساسية والمبادىء الرئيسية بالنسبة إلى كل موضوع .

والموضوع الاول الذي سوف نختاره للبحث هو : « سنن التاريخ في القرآن الكريم » ! هل للتاريخ البشري سنن وقوانين في مفهوم القرآن الكريم ، تتحكم في مسيرته وفي حركته وتطوره ؟ ما هي هذه السنن التي تتحكم في التاريخ البشري ؟ كيف بدأ التاريخ البشري ؟ كيف نما ؟ كيف تطور ؟ ما هي

العوامل الاساسية في نظرية التاريخ ؟ ما هو دور الانسان في عملية التاريخ ؟ ما هو موقع السماء أو النبوة على الساحة البشرية ؟ هذا كله ما سوف ندرسه تحت هذا العنوان ، عنوان سنن التاريخ في القرآن الكريم ، حيث نجد أن القرآن قد بحث الجزء الاعظم من مواد هذا الجانب ومفرداته القرآنية ، لكن من زوايا مختلفة ، فمثلاً : قصص الانبياء (ع) التي تمثل الجزء الاعظم من هذه المادة القرآنية . فحصت قصص الانبياء من زاوية تاريخية تناولها المؤرخون ، واستعرضوا الحوادث والوقائع التي تكلم عنها القرآن الكريم . وحينما لاحظوا الفراغات التي تركها هذا الكتاب العزيز ، حاولوا ان يملأوها بالروايات والاحاديث ، أو بما هو المأثور عن أديان سابقة ، أو بالأساطير والخرافات ، فتكونت سجلات ذات طابع تاريخي لتنظيم هذه المادة القرآنية ، كذلك أيضا بحثت هذه المادة القرآنية من زاوية أخرى ، من زاوية منهج القصة في القرآن ، وبيّنت مدى ما يتمتع به هذا المنهج من أصالة وقوة وإبداع ، وما تزخر به القصة القرآنية من حيوية ، وحركة ، وأحداث ، وهكذا . ونحن نريد ان نتناول الآن هذه المادة القرآنية من زاوية أخرى ، من زاوية مقدار ما تلقي من أضواء على سنن التاريخ ، على تلك الضوابط والقوانين ، التي تتحكم في عملية التاريخ لنكتشف ما اذا كان يوجد في مفهوم القرآن شيء منها . فالساحة التاريخية كأية ساحة أخرى ، فلكية كانت ، أو فيزيائية أو نباتية ، إذ لا إشكال في ان كلاً من هذه الساحات زاخرة بمجموعة من الظواهر ، وهذه الظواهر المتكثرة في كل ساحة من الساحات تلك ، تتكيء على سنن وقوانين وضوابط ، تحكمها أو تتحكم فيها .

وكما في الساحات الأخرى ، كذلك في الساحة التاريخية ، ظواهر متكثرة ومتنوعة .

وهنا نتساءل : هل لهذه الظواهر على الساحة التاريخية قوانين وضوابط تحكمها أو تتحكم فيها ، كما كان الحال بالنسبة للظواهر التي تزخر بها مختلف الساحات الأخرى ؟

وما هو موقف القرآن منها ، وما هو عطاؤه في تأكيد ذلك ايجاباً أو سلباً ، اجمالاً أو تفصيلاً ؟ . . .

قد يتوهم البعض ، أننا لا ينبغي أن نترقب من القرآن الكريم أن يتحدث عن سنن التاريخ ، لان البحث في سنن التاريخ بحث علمي ، كالبحث في سنن الطبيعة والذرة والنبات . والقرآن الكريم لم ينزل كتاب اكتشاف بل كتاب هداية ، القرآن الكريم لم يكن كتابا مدرسيا ، وإنما نزل هذا الكتاب على النبي (ص) لكي يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، من ظلمات الجاهلية إلى نور الاسلام . اذن فهو كتاب هداية وتغيير ، وليس كتاب اكتشاف .

ومن هنا لا نترقب من القرآن الكريم ان يكشف لنا الحقائق والمبادىء العامة للعلوم الأخرى ، ولا نترقب من القرآن الكريم ان يتحدث لنا عن مبادىء الفيزياء أو الكيمياء أو النبات أو الحيوان . صحيح أن في القرآن الكريم إشارات إلى كل ذلك ، ولكنها إشارات بالحدود التي تؤكد على البعد الإلهي للقرآن ، وبقدر ما يمكن أن يثبت العمق الرباني لهذا الكتاب الذي أحاط بالماضي والحاضر والمستقبل ، والذي استطاع أن يسبق التجربة البشرية مئات السنين في مقام الكشف عن حقائق متفرقة في الميادين العلمية المتفرقة ، لكن هذه الإشارات القرآنية ، انما هي لأجل غرض علمي من هذا القبيل ، لا من أجل تعليم الفيزياء والكيمياء . القرآن لم يطرح نفسه بديلا عن قدرة الانسان الخلّاقة ، ومواهبه وقابلياته في مقام الكدح في كل ميادين الحياة ، بما في ذلك ميدان المعرفة والتجربة ، وإنما طرح نفسه طاقة روحية موجهة للانسان ، مفجرة لطاقاته ، محركة له في المسار الصحيح . ومن نفس هذا المنظور ، نتتظر من القرآن الكريم أن يعطينا عموميات ، أن يعطينا مواقف ، أن يبلور لنا مفهوما علميا في سنن التاريخ على هذه الساحة من ساحات الكون ، بينما ليس للقرآن مثل ذلك على الساحات الأخرى ، ولا حرج على القرآن في ان لا يكون له ذلك على الساحات الأخرى ؟ لأن القرآن لو صار في مقام استعراض هذه القوانين ، وكشف هذه

الحقائق، لكان بذلك يتحول إلى كتاب اخر نوعياً ، يتحول من كتاب للبشرية جمعاء ، إلى كتاب للمتخصصين يدرس في الحلقات الخاصة .

قد يتوهم البعض ذلك ، فيورد علينا هذا الاعتراض ، ونحن بصدد عملية اكتشاف نظرية قرآنية عامة حول السنن التاريخية في كتاب الله .

الا ان هذه الملاحظة ، رغم ان الروح العامة فيها صحيحة ، بمعنى أن القرآن الكريم ليس كتاب اكتشاف ، ولم يطرح نفسه ليجمد في الانسان طاقات النمو والابداع والبحث ، وإنما هو كتاب هداية ، ولكن مع هذا ، يوجد فرق جوهري بين الساحة التاريخية وبقية ساحات الكون ، هذا الفرق الجوهري يجعل من هذه الساحة ومن سننها أمرا مرتبطا أشد الارتباط بوظيفة القرآن ككتاب هداية ، خلافا لبقية الساحات الكونية الأخرى للمعرفة البشرية ، وذلك أن القرآن الكريم كتاب هداية ، ولكنه عملية تغيير عبر عنها في القرآن الكريم بأنها إخراج للناس من الظلمات إلى النور .

وعملية التغيير هذه فيها جانبان :

الجانب الأول : جانب المحتوى والمضمون ، ما تدعو اليه هذه العملية التغييرية من أحكام ومناهج ، وما تتبناه من تشريعات ، هذا الجانب من عملية التغيير جانب رباني سماوي ، يمثل شريعة الله سبحانه ، التي نزلت على النبي محمد(ص)وتحدىً بنفس نزولها عليه كل سنن التاريخ المادية ، لأن هذه الشريعة كانت اكبر من الجو الذي نزلت عليه ، ومن البيئة التي حلت فيها ، ومن الفرد الذي كلف بأن يقوم بأعباء تبليغها .

الجانب الثاني : لكن هناك جانب آخر لعملية التغيير التي مارسها النبي(ص)وأصحابه الاطهار ، هذه العملية حينما تلحظ بوصفها عملية اجتماعية متجسدة في جماعة من الناس وهم النبي والصفوة من الصحابة ، وبوصفها عملية قد واجهت تيارات اجتماعية مختلفة من حولها ، واشتبكت معها في ألوان من الصراع والنزاع العقائدي والاجتماعي والسياسي والعسكري ، حينما تؤخذ

هذه العملية التغييرية بوصفها تجسيدا بشريا واقعاً على الساحة التاريخية ، مترابطا مع الجماعات والتيارات الاخرى التي تكتنف هذا التجسيد ، والتي تؤيد أو تقاوم هذا التجسيد ، من هذه الزاوية تكون عملية بشرية ، يكون هؤلاء اناسا كسائر الناس ، تتحكم فيهم إلى درجة كبيرة سنن التاريخ التي تتحكم في بقية الجماعات وفي بقية الفئات على مر الزمن .

اذن ، عملية التغيير التي مارسها القرآن ومارسها النبي (ص) لها جانبان، من حيث صلتها بالشريعة وبالوحي ، هي ربانية ، هي فوق التاريخ ، ولكن من حيث كونها عملا قائما على الساحة التاريخية ، من حيث كونها جهدا بشريا يقاوم جهودا بشرية اخرى ، تعتبر عملا تاريخيا تحكمه سنن التاريخ ، وتتحكم فيه الضوابط التي وضعها الله سبحانه لتنظيم ظواهر الكون في هذه الساحة المسماة بالساحة التاريخية ، ولهذا نرى ان القرآن الكريم حينما يتحدث عن الزاوية الثانية ، عن الجانب الثاني من عملية التغيير يتحدث عن أناس ، بوصفهم بشرا من البشر ، تتحكم فيهم القوانين التي تتحكم في الآخرين ، حينما أراد ان يتحدث عن انكسار المسلمين في غزوة أُحُد بعد أن احرزوا ذلك الانتصار الحاسم في غزوة بدر ، تحدث القرآن الكريم عن هذه الخسارة ، ماذا قال ؟ هل قال بأن رسالة السماء خسرت المعركة بعد أن كانت ربحت المعركة في بدر ؟ لا . . لأن رسالة السماء فوق مقاييس النصر والهزيمة بالمعنى المادي ، ولكن الذي يهزم هو الانسان ، الانسان حتى ولو كان مجسداً لرسالة السماء ، لأن هذا الانسان تتحكم فيه سنن التاريخ ، ماذا قال القرآن ؟ قال :

﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾[1] .

هنا أخذ يتكلم عنهم بوصفهم أناسا قال بأن هذه القضية هي في الحقيقة ترتبط بسنن التاريخ ، المسلمون انتصروا في بدر حينما كانت الشروط الموضوعية للنصر بحسب منطق سنن التاريخ تفرض أن ينتصروا ، وخسروا المعركة في أُحُد

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٤٠ .

حينما كانت الشروط الموضوعية للخسارة بحسب نفس المنطق في معركة أحد ، تفرض عليهم أن يخسروا المعركة .

﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾[1]

لا تتخيلوا أن النصر حق إلهي لكم ، وإنما النصر حق طبيعي لكم ، بقدر ما يمكن أن توفروا الشروط الموضوعية لهذا النصر بحسب منطق سنن التاريخ التي وضعها الله سبحانه وتعالى كونيا لا تشريعيا ، وحيث إنكم في غزوة أحد لم تتوفر لديكم هذه الشروط ، خسرتم المعركة . فالكلام هنا كلام مع بشر ، مع عملية بشرية لا مع رسالة ربانية . بل يذهب القرآن إلى اكثر من ذلك ، يهدد هذه الجماعة البشرية التي كانت انظف واطهر جماعة على مسرح التاريخ بأنها إذا لم تقم بدورها التاريخي ، وإذا لم تكن على مستوى مسؤولية رسالة السماء ، فإن هذا لا يعني ان تتعطل رسالة السماء ، ولا يعني أن تسكت سنن التاريخ عنهم ، بل انها سوف تستبدل ، سنن التاريخ سوف تعزلها وسوف تأتي بأمم أخرى قد تهيأت لها الظروف الموضوعية الأفضل لكي تلعب هذا الدور ، لكي تكون شهيدة على الناس ، إذا لم تتهيأ لهذه الأمة الظروف الموضوعية لهذه الشهادة :

﴿ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ، وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . . ﴾[3]

---

(١) سورة آل عمران : الآية / ١٤٠ .

(٢) سورة التوبة : الآية / ٣٩ .

(٣) سورة المائدة : الآية / ٥٤ .

إذن ، فالقرآن الكريم إنما يتحدث من خلال الجانب الثاني في عملية التغيير ، مع البشر في ضعفه وقوته ، في استقامته وانحرافه ، في توفر الشروط الموضوعية له وعدم توفرها .

من هنا يظهر ، بان البحث في سنن التاريخ ، مرتبط ارتباطا عضويا شديدا بكتاب الله بوصفه كتاب هدى ، بوصفه إخراجاً للناس من الظلمات إلى النور ، لأن الجانب العملي البشري والتطبيقي من هذه العملية ، يخضع لسنن التاريخ ، فلا بد اذن ان نستلهم ، ولا بد ان يكون للقرآن الكريم تصورات وعطاءات في هذا المجال ، لتكوين اطار عام للنظرة القرآنية والاسلامية عن سنن التاريخ .

اذن ، هذا لا يشبه سنن الفيزياء والكيمياء والفلك والحيوان والنبات ، تلك السنن ليست داخلة في نطاق التأثير المباشر على عملية التاريخ ، ولكن هذه السنن داخلة في نطاق التأثير المباشر على عملية التغيير ، باعتبار الجانب الثاني ، ولذا ، لا بد من شرح ذلك ، ولا بد ان نترقب من القرآن اعطاء عموميات في ذلك ، نعم لا ينبغي ان نترقب من القرآن ان يتحول ايضا إلى كتاب مدرسي في علم التاريخ وسنن التاريخ ، بحيث يستوعب كل التفاصيل وكل الجزئيات ، حتى ما لا يكون له دخل في منطق عملية التغيير التي مارسها النبي (ص)، وانما القرآن الكريم يحتفظ دائماً بوصفه الأساسي والرئيسي ، يحتفظ بوصفه كتاب هداية ، كتاب اخراج للناس من الظلمات إلى النور ، وفي حدود هذه المهمات الكبيرة العظيمة التي مارسها في صدور هذه المهمة ، يعطي مقولاته على الساحة التاريخية ، ويشرح سنن التاريخ بالقدر الذي يلقي ضوءاً على عملية التغيير التي مارسها النبي (ص)، بقدر ما يكون موجهاً وهادياً وخالقاً لرؤية موضوعية للأحداث والظروف والشروط .

ونحن نلاحظ في القرآن الكريم هذه الحقيقة ، حقيقة ان الساحة التاريخية عامرة بسنن كما عمرت كل الساحات الكونية الأخرى بسنن .

فقد بيّنت هذه الحقيقة بأشكال مختلفة وبأساليب متعددة في عدد كثير من الآيات ، بيّنت على مستوى اعطاء نفس هذا المفهوم بالنحو الكلي ، وبيّنت هذه الحقيقة في آيات اخرى على مستوى عرض هذه القوانين ، وبيان مصاديق ونماذج وأمثلة لها وكيف تتحكم في المسيرة التاريخية للانسان ، وبيّنت في سياق آخر ، على نحو تمتزج فيه النظرية بتطبيقاتها امتزاج المفهوم بالمصداق ، وفي آيات اخرى حصل الحث الأكيد على الاستفادة من الحوادث الماضية ، وشحذ الهمم لايجاد عملية استقراء للتاريخ ، وعملية الاستقراء للحوادث كما تعلمون ، هي عملية علمية بطبيعتها ، تريد أن تفتش عن سنّة وقانون ، وإلا فلا معنى للاستقراء من دون افتراض سنة أو قانون . إذن هناك اَلْسِنَةُ متعددة درجت عليها الآيات القرآنية في مقام توضيح هذه الحقيقة وبلورتها .

ونحن عندما نتصفّح كتاب الله العظيم ، نجد أن هناك عدداً كثيراً من الآيات الكريمة استعرضت هذه الفكرة بشكل وآخر ، وسوف نقرأ جملة من هذه الآيات الكريمة ، وبعض هذه الآيات التي سوف نستعرضها واضح الدلالة على المقصود ، والبعض الآخر له نحو دلالة بشكل وآخر ، أو يكون معززاً ومؤيداً للروح العامة لهذه الفكرة القرآنية .

فمن الآيات الكريمة التي اعطيت فيها الفكرة الكلية ، فكرة ان التاريخ له سنن وضوابط ما يلي :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ اذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾(١) .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإذا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾(٢) .

نلاحظ في هاتي الآيتين الكريمتين ، أن الأجل أضيف إلى الأمة ، إلى

---

(١) سورة يونس : الآية / ٤٩ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٣٤ .

الوجود المجموعي للناس، لا إلى هذا الفرد إو ذاك الفرد بالـذات ، إذن ، هناك وراء الأجل المحدود المحتوم لكل إنسـان بوصفـه الفردي ، أجـل آخر وميقـات آخر للوجود الاجتماعي للأفـراد ، للأمـة بوصفهـا مجتمعا يُنشيء مـا بين أفـراده العلاقات والصلات القائمـة على أسـاس مجموعـة من الأفكار والمبـاديء المسندة بمجموعة من القوى والقابليـات ، هذا المجتمـع الذي يعـبر عنه القـرآن الكريم بالأمة ، له أجل ، له موت ، له حياة ، له حركة ، كما أن الفرد يتحرك فيكـون حيا ثم يموت ، كذلك الأمـة تكون حيـة ثم تموت ، وكـما أن موت الفـرد يخضع لأجل ولقانون ، كذلك الأمم ايضاً لها آجالها المضبوطة وقوانينها .

وهناك نواميس تحدد لكل أمة هذا الأجل .

إذن ، هاتان الآيتان الكريمتان ، فيهما عطاء واضح للفكرة الكلية ، فكـرة أن التـاريخ لـه سنن تتحكم به وراء السنن الشخصيـة التي تتحكم في الأفراد ، بهوياتهم الشخصية :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾[1] . ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾[2] . ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾[3] .

ظاهر الآيـة الكريمـة ، أن الأجل الـذي يترقب هؤلاء أن يكـون قريبـا أو يهـدّدون بأن يكـون قريبـاً ، هو الأجـل الجماعي لا الأجـل الفردي ، لأن قـوما بمجمـوعهم لا يموتـون عادة في وقت واحـد ، وإنما الجـماعة بـوجـودهـا المعنـوي الكلي ، هو الذي يمكن ان يكون قد اقترب أجله .

فالأجل الجماعي هنا يعـبر عن حالـة قائمـة بالجـماعة ، لا عن حـالة قـائمة بهـذا

---

(١) سورة الحجر : الآية / ٤ ـ ٥ .

(٢) سورة المؤمنون : الآية / ٤٣ .

(٣) سورة الأعراف : الآية / ١٨٥ .

الفرد أو بذاك ، لأن الناس عادة تختلف آجالهم حينما ننظر إليهم بالمنظار الفردي ، لكن حينما ننظر إليهم بالمنظار الاجتماعي وبوصفهم مجموعة واحدة متفاعلة في ظلمها وعدلها ، في سرّائها وضرائها ، يكون لها أجل واحد ، فهذا الأجل الجماعي المشار إليه ، إنما هو أجل الأمة ، وبهذا تلتقي هذه الآية الكريمة مع الآيات السابقة .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً[1] ﴾ .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ﴾[2] .

ففي هاتين الآيتين الكريمتين ، تحدث القرآن الكريم ، عن أنه لو كان الله يريد أن يؤاخذ الناس بظلمهم ، وبما كسبوا ، لما ترك على ساحة الناس من دابة ، يعني لأهلك الناس جميعا .

وقد وقعت مشكلة في كيفية تصوير هذا المفهوم القرآني ، حيث إن الناس ليسوا كلهم ظالمين عادة ، فيهم الأنبياء ، فيهم الأئمة وفيهم الأوصياء . هل يشمل الهلاك الأنبياء ، والأئمة العدول من المؤمنين ؟ حتى ان بعض الناس استغل هاتين الآيتين لانكار عصمة الأنبياء (ع) .

والحقيقة ، ان هاتين الآيتين تتحدثان عن عقاب دنيوي لا عن عقاب أخروي ، تتحدث عن النتيجة الطبيعية لما تكسبه امة عن طريق الظلم والطغيان ، هذه النتيجة الطبيعية لا تختص حينئذ بخصوص الظالمين من ابناء المجتمع ، بل تعم أبناء المجتمع على اختلاف هوياتهم ، وعلى اختلاف انحاء سلوكهم .

---

(١) سورة الكهف : الآية (٥٨ ـ ٥٩) .

(٢) سورة فاطر : الآية / ٤٥ .

حينها وقع التيه أربعين عاماً على بني اسرائيل نتيجة ما كسب هـذا الشعب ظلمه وطغيانه وتمرده ، هذا التيه لم يختص بخصوص الظالمين من بني اسرائيل ، انما شمل موسى (ع) ، شمل اطهـر الناس وأزكـاهم وأشجعهم ،.في مواجهـة لظلمة والطواغيت ، شمل مـوسى (ع) لانه جـزء من تلك الامة ، وبهـذا شمل لتيه موسى (ع) .

حينها حل البلاء والعذاب بالمسلمين نتيجـة انحرافهم ، فـاصبح يـزيد بن معاوية خليفـة عليهم ، يتحكم في دمائهم وامـوالهم واعراضهم وعقـائدهم ، لم يختص بالظالمين من المجتمع الاسلامي ، وقتئذ شمل الحسين (ع) ، أطهر الناس وأزكى الناس واطيب الناس وأعـدل الناس ، شمـل الامام المعصـوم (ع) حيث قتل تلك القتلة الفظيعة هو واصحابه وأهل بيته .

هذا كله هو منطق سنن التاريخ ، والعذاب حينها يأتي في الدنيا على مجتمع وفق هذه السنن ، لا يختص بخصوص الظالمين من ابنـاء ذلك المجتمـع ، ولهذا قال القرآن الكريم في آية اخرى :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِيْنَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً وَاعْلَمُوا أنَّ الله شَدِيـدُ العِقَاب ﴾[1] .

بينها يقول في موضع آخر .

﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرَى ﴾[2]

فـالعقاب الأخـروي دائـما ينصب عـلى العـامـل مبـاشرة ، وأمـا العقـاب الدنيوي فيكون أوسع من ذلك ، اذن هاتان الآيتان الكريمتان تتحدثان عن سنن التاريخ وما يمكن ان يحصل نتيجة كسب الأمة وسعيها وجهدها ، لا عن العقاب بالمعنى الاخروي ، والعذاب بمعنى مقاييس يوم القيامة ،

﴿ وَإنْ كـادُوا لَيَسْتَفِزُّونَـكَ مِنَ الارضِ لِيُخْـرِجُـوكَ مِنْهَـا وَاذاً لا يَلْبَثُـونَ

(١) سورة الأنفال : الآية (٢٥ .

(٢) سورة فاطر : الآية/ ١٨ .

خِلافَكَ الاّ قَلِيلاً سُنَّةَ مَنْ قَدْ ارْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾(١) .

هذه الآية الكريمة أيضا تؤكد المفهوم العام ، يقول :
﴿ ولاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾، هذه سنة سلكناها مع الأنبياء من قبلك ، وسوف تستمر ولن تتغير . أهل مكة يحاولون أن يستفزوك لتخرج من مكة، لأنهم عجزوا عن امكانية القضاء عليك ، وعلى كلمتك ودعوتك ، ولهذا صار أمامهم طريق واحد ، وهو اخراجك من مكة .

وهناك سنة من سنن التاريخ سوف يأتي انشاء الله شرحها بعد ذلك ، يشار اليها في هذه الآية الكريمة . وهي أنه اذا وصلت عملية المعارضة إلى مستوى اخراج النبي من هذا البلد ، بعد عجز هذه المعارضة عن كل الوسائل والاساليب الاخرى ، فانهم لا يلبثون الا قليلا . ليس المقصود من انهم لا يلبثون الا قليلا ، أنهم سوف ينزل عليهم عذاب الله سبحانه من السماء ، لأن أهل مكة اخرجوا النبي بعد نزول هذه السورة . استفزوه وارعبوه ، وخرج النبي (ص) من مكة إلى المدينة، اذ لم يجد له ملجأً وأمانا ، ولم ينزل عذاب من السماء على أهل مكة ، وانما المقصود في أكبر الظن من هذا التعبير ، أنهم لا يمكثون كجماعة صامدة معارضة ، وكموقع اجتماعي ، لا كأناس وكبشر ، وانما سوف ينهار هذا الموقع نتيجة هذه العملية ، لان هذه النبوة التي عجز هذا المجتمع عن تطويقها ، سوف تستطيع بعد ذلك ان تهز هذه الجماعة كموقع للمعارضة ، وهذا ما وقع فعلا . فان رسول لله (ص) حينما أخرج من مكة لم يمكثوا بعده الا قليلا ، اذ فقدت المعارضة في مكة موقعها ، وتحولت مكة إلى جزء من دار الاسلام بعد سنين معدودة .

اذن ، الآية تتحدث عن سنة من سنن التاريخ ، وتؤكد وتقول
﴿ وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ .

---

(١) سورة الإسراء : الآية / ٧٦ ـ ٧٧ .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[1] .

تؤكد هذه الآية على السنن ، وتؤكد على ضرورة التتبع لاحداث التاريخ من اجل استكشاف هذه السنن ومن ثمّ الاعتبار بها .

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ . . . ﴾[2] .

هذه الآية أيضاً تثبّت قلب رسول الله (ص)، تحدثه عن التجارب السابقة ، وتربطه بقانونها ، وتوضح له ان هناك سنة تجري عليه وتجري على الانبياء الـذين مارسوا هذه التجربة من قبله ، وان النصر سوف يـأتيه ، ولكن للنصر شروطه الموضوعية : الصبر ، والثبات ، واستكمال باقي الشروط ، هـذا هـو طـريق الحصول على هذا النصر ، ولهذا تقول الآية :

﴿ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ﴾ اذن هناك كلمة لله لا تتبدل على مر التاريخ ، هي علاقة قائمة بين النصر وبين مجموعة من الشروط والقضايا والمواصفات وضحت من خلال الآيات المتفرقة ، وجمعت على وجه الاجمال هنا . اذن فهناك سنة للتاريخ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾[3]

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾[4] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية / ١٣٧ .

(٢) سورة الأنعام : الآية / ٣٤ .

(٣) سورة فاطر : الآية / ٤٣ .

(٤) سورة الفتح : الآية /٢٣ .

هناك آيات استعرضت نماذج من سنن التاريخ

﴿ إنَّ الله لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بأنْفُسِهِمْ ﴾[1] .

المحتوى الداخلي النفسي والروحي للانسان هو القاعدة ، الوضع الاجتماعي هو البناء العلوي ، لا يتغير هذا البناء العلوي الا وفقا لتغير القاعدة ، على ما يأتي انشاء الله شرحه بعد ذلك .

هذه الآية اذن ، تتحدث عن علاقة معينة بين القاعدة والبناء العلوي ، بين الوضع النفسي والروحي والفكري للانسان ، وبين الوضع الاجتماعي ، بين داخل الانسان وبين خارجه ، فخارج الانسان ، يصنعه داخل الانسان ، فاذا تغير ما بنفس القوم تغير ما عليه وضعهم ، وعلاقاتهم ، والروابط التي تربط بعضهم ببعض .

اذن فهذه سنة من سنن التاريخ ، ربطت القاعدة بالبناء العلوي ﴿ ذٰلِكَ بأنَّ الله لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً انْعَمَها عَلَى قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا ما بأنْفُسِهِمْ ﴾[2] . ﴿ أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأسَاءُ والضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حتىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللهِ ألا انَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ ﴾[3] .

يستنكر عليهم ان يأملوا في ان يكون لهم استثناء من سنة التاريخ ، هل تطمعون ان يكون لكم استثناء من سنة التاريخ ! وان تدخلوا الجنة وان تحققوا النصر ، وانتم لم تعيشوا ما عاشته تلك الامم التي انتصرت ودخلت الجنة من ظروف البأساء والضراء التي تصل إلى حد الزلزال ، على حد تعبير القرآن الكريم ؟ ان حالات البأساء والضراء التي تتعملق على مستوى الزلزال هي في الحقيقة مدرسة للامة ، هي امتحان لإرادتها وصمودها وثباتها ، لكي تستطيع

---

(١) سورة الرعد : الآية / ١ .

(٢) سورة الأنفال : الآية / ٥٣ .

(٣) سورة البقرة : الآية / ٢١٤ .

بالتدريج ، ان تكتسب القدرة على ان تكون امة وسطاً بين الناس .

وعليه ، فنصر الله قريب لكنه ليس أمرا عفويا ، ليس أمرا على سبيل الصدفة ، نصر الله قريب ولكن اهتد إلى طريقه . ومن أجل تحصيل ذلك الاهتداء ، لا بد وان تعرف منطق التاريخ ، قد يكون الدواء قريبا من المريض ، لكن اذا كان هذا المريض لا يعرف تلك المعادلة العلمية التي تؤدي إلى اثبات ان هذا الدواء يقضي على جرثومة هذا الداء ، لا يستطيع ان يستعمل هذا الدواء حتى ولو كان قريبا منه .

فالاطلاع على سنن التاريخ ، هو الذي يمكّن الانسان من التوصل إلى النصر . فهذه الآية تستنكر على المخاطبين بها ان يكونوا طامعين في الاستثناء من سنن التاريخ :

﴿ وَما أَرْسَلْنا في قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ الاّ قالَ مُتْرَفُوها اِنّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ وَقالُوا نَحْنُ اكْثَرُ امْوالاً وَاوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . . ﴾[1] .

هذه علاقة قائمة بين النبوة على مر التاريخ ، وبين موقع المترفين والمسرفين في الامم والمجتمعات . هذه العلاقة تمثل سنة من سنن التاريخ ، وليست ظاهرة وقعت في التاريخ صدفة ، والا لما تكررت بهذا الشكل المطرد ، ولما قال : ﴿ وَما أَرْسَلْنا في قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ اِلاّ قالَ مُتْرَفُوها ﴾ اذن هناك علاقة سلبية ، هناك علاقة تطارد وتناقض ، بين موقع النبوة الاجتماعي في حياة الناس على الساحة التاريخية ، والموقع الاجتماعي للمترفين والمسرفين ، هذه العلاقة ترتبط في الحقيقة بدور النبوة في المجتمع ، ودور المترفين والمسرفين في المجتمع . هذه العلاقة جزء من رؤية موضوعية عامة للمجتمع ، كما سوف يتضح انشاء الله عندما نبحث عن دور النبوة في المجتمع ، والموقع الاجتماعي للنبوة ، سوف يتضح حينئذ ان النقيض الطبيعي للنبوة هو موقع المترفين والمسرفين .

---

(١) سورة سبا : / ٣٤ ـ ٣٥ .

اذن هذه سنة من سنن التاريخ : ﴿ .. وَاذَا أَرَدْنَا انْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾[1] .

هذه الآية أيضا ، تتحدث عن علاقة معينه ومطّردة بين ظلم يسود ويسيطر ، وبين هلاك تجر اليه الامة جراً . وهي سنة من سنن التاريخ .

﴿ وَلَوْ انَّهُم اَقامُوا التَّوْراةَ وَالإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ .. ﴾[2] .

﴿ وَلَوْ انَّ أَهْلَ الْقُرىٰ آمَنُوا واتَّقَوا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ والأَرْضِ وَلٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخذناهُمْ بِمَا كانُوا يَكْسِبُون[3] ﴾ .

﴿ وَأَنَ لَو اسْتَقَامُوا عَلىَ الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْناهُم مَاءً غَدَقاً بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آباءَنَا عَلىٰ أُمَّةٍ وَانَّا عَلىٰ آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾[4] ﴿ وَكَذٰلِكَ ما ارْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرَ الاّ قالَ مُتْرَفُوها إِنّا وَجَدْنا آبائَنا عَلى أُمَّةٍ وَانّا عَلىٰ آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾[5] .

هذه الآيات ايضاً ، تتحدث عن علاقة معينة بين الاستقامة وتطبيق احكام الله سبحانه ، وبين وفرة الخيرات ووفرة الانتاج ، وبلغة اليوم : بين عدالة التوزيع وبين وفرة الانتاج ، القرآن يؤكد ان المجتمع الذي تسوده العدالة في التوزيع ، التي عبر عنها القرآن تارة بـ : ﴿ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ واخرى بـ : ﴿ لَوْ أَنّ اهْلَ القُرىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوا ﴾ واخرى بـ : ﴿ لَوْ انَّهُمْ اقامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴾ ،

لأن شريعة السماء نزلت من أجل تقرير عدالة التوزيع ، وإقامتها على أسس

---

(١) سورة الإسراء : الآية / ١٦ ـ ١٧ .
(٢) سورة المائدة : الآية / ٦٦ .
(٣) سورة الأعراف : الآية / ٩٦ .
(٤) سورة الجن : الآية / ١٦ .
(٥) سورة الزخرف : الآية / ٢٢ .

عادلة ، يقول : لو أنهم طبقوا عدالة التوزيع ، اذن لما وقعوا في ضيق من ناحية لثروة المنتجة ، بل لازداد الثراء وازدادت الخيرات والبركات . لكنهم تخيلوا أن عدالة التوزيع تقتضي التقسيم ، وبالتالي تقتضي فقر الناس ، بينما الحقيقة أن السنة التاريخية تؤكد عكس ذلك ، تؤكد بأن تطبيق شريعة السماء وتجسيد أحكامها في علاقات التوزيع ، تؤدي دائماً وباستمرار ، إلى وفرة الانتاج وإلى زيادة الثروة ، إلى أن يفتح على الناس بركات السماء والأرض .

اذن هذه ايضا سُنَّة من سنن التاريخ .

وهناك آيات اخرى حثت على الاستقراء والنظر والتدبر في الحوادث التاريخية ، من اجل تكوين نظرة استقرائية ، من اجل الخروج بنواميس وسنن كونية للساحة التاريخية .

﴿ افَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ اَمْثالُها ﴾[1] .

﴿ اَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾[2] .

﴿ فَكَأَيِّن مِنْ قَرْيَةٍ اَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلىٰ عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها او آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَانَّها لا تَعْمَى الأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[3] .

﴿ وَكَمْ اهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ

---

(١) سورة محمد : الآية / ١٠ .

(٢) سورة يوسف : الاية / ١٠٩ .

(٣) سورة الحج : الآية / ٤٦ .

مِنْ مَحِيصٍ ، انَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ اَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيْدٌ . . . ﴾[1].

من مجموع هذه الآيات الكريمة ، يتبلور المفهوم القرآني الذي اوضحناه ، وهو تأكيد القرآن على ان الساحة التاريخية لها سنن ولها ضوابط ، كما يكون هناك سنن وضوابط لكل الساحات الكونية الاخرى . وهذا المفهوم القرآني ، يعتبر فتحا عظيما للقرآن الكريم . . لاننا في حدود ما نعلم ، أن القرآن اول كتاب عرفه الانسان ، اكد على هذا المفهوم ، وكشف عنه وأصر عليه ، وقاوم بكل ما لديه من وسائل الاقناع والتفهيم ، النظرة العفوية أو النظرة الغيبية الاستسلامية في تفسير الاحداث ، الانسان الاعتيادي كان يفسر التاريخ بوصفه كومة متراكمة من الاحداث ، يفسره على اساس الصدفة تارة ، وعلى اساس القضاء والقدر والاستسلام لامر الله سبحانه وتعالى تارة أخرى ، القرآن الكريم قاوم هذه النظرة العفوية الاستسلامية ، ونبه العقل البشري ، إلى ان هذه الساحة لها سنن ، ولها قوانين ، ولكي تستطيع ان تكون انسانا فاعلا مؤثراً ، لا بد لك أن تكتشف هذه السنن ، وتتعرف على تلك القوانين ، لكي تستطيع ان تتحكم فيها ، والا تحكمت هي فيك وانت مغمض العينين ، افتح عينيك على هذه القوانين ، لكي تكون انت المتحكم فيها وليس العكس .

هذا الفتح القرآني الجليل ، هو الذي مهد إلى تنبيه الفكر البشري بعد ذلك بقرون ، إلى ان تجري محاولات لفهم التاريخ فهما علميا ، بعد نزول القرآن بثمانية قرون ، بدأت هذه المحاولات على ايدي المسلمين انفسهم ، فقام ابن خلدون بمحاولة لدراسة التاريخ وكشف سننه وقوانينه ، ثم بعد ذلك بأربعة قرون (على اقل تقدير) ، اتجه الفكر الاوربي في بدايات ما يسمى بعصر النهضة ، نحو تجسيد هذا المفهوم الذي ضيعه المسلمون ، حيث لم يتوغلوا إلى

---

(1) سورة ق : الآية / ٣٦ ـ ٣٧ .

اعماقه ، وبدأت لدى الغربيين أبحاث متنوعة ومختلفة حول فهم التاريخ ، وفهم سننه ، ونشأت على هذا الاساس اتجاهات مثالية ومادية ومتوسطة ، ومدارس متعددة ، كل واحدة منها تحاول ان تحدد هذه السنن التاريخية .

وقد تكون المادية التاريخية اشهر هذه المدارس وأوسعها تغلغلا واكثرها تأثيرا في التاريخ نفسه ، اذن ، كل هذا الجهد البشري في الحقيقة ، هو استمرار لهذا التنبيه القرآني ، ويبقى للقرآن الكريم مجده في انه طرح هذه الفكرة لأول مرة على ساحة المعرفة البشرية .

- ٣ -

حقائق قرآنية
عن سنن التاريخ

من استعـراضنـا السـابق للنصـوص القـرآنيـة الكـريمـة ، التي أوضحت فكرة السنن التاريخيـة وأكدت عليهـا ، يمكننا أن نستخلص من خـلال المقارنة بين تلك النصوص ، ثلاث حقائق أكد عليها القرآن الكريم بـالنسبة إلى سنن التاريخ .

الحقيقة الاولى :

هي الاطّـراد ، بمعنى أن السنة التـاريخية مـطردة ، فهي ليست علاقـة عشوائيـة قائمة على أساس الصدفة والاتفاق ، وإنما هي علاقة ذات طابع مـوضوعي ، لا تتخلف في الحـالات الاعتياديـة التي تجـري فيهـا الـطبيعـة والكـون عـلى السنن العامة ، وكان التأكيد على طابع الاطراد في السنة ، تأكيدا عـلى الطابـع العلمي للقـانـون التاريخي ، لان اهم مميـز يميـز القـانـون العلمي عن بقيـة المعـادلات والفروض ، هو الإطراد والتتابع وعدم التخلف .

ومن هنا استهدف القرآن الكريم ، من خلال التأكيد على طـابع الإطـراد في السنة التاريخية ، التأكيد على الطابع العلمي لهذه السنّة بغيـة خلق شعور واع لدى الانسان المسلم ، يمكنه من تتبع أحداث التاريخ في جريانها بصورة واعية ، بعيداً عن العشوائية والسذاجة والإستسلام .

﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً . . ﴾[1] ، ﴿ وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً . . ﴾[2]

---

(١) سورة الأحزاب : الآية / ٦٢ . (٢) سورة الإسراء : الآية / ٧٧ .

« وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللهِ . . . »

هذه النصوص القرآنية التي تقدم استعراضها ، تؤكد على طابع الاستمرارية والاطراد أي طابع الموضوعية والعلمية للسنة التاريخية ، وتستنكر هذه النصوص الشريفة كما تقدم في بعضها ، أن يكون هناك تفكير أو طمع لدى جماعة من الجماعات ، بأن تكون مستثناة من سنة التاريخ كما تقدم شرحه .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ [٢] فالروح العامة للقرآن ـ إذن ـ ، تؤكد على هذه الحقيقة الاولى ، حقيقة الإطراد في السنة التاريخية ، الذي يعطيها الطابع العلمي من أجل تربية الانسان على ذهنية واعية علمية يتصرف في اطارها ومن خلالها مع أحداث التاريخ .

الحقيقة الثانية :

الحقيقة الثانية التي أكدت عليها النصوص القرآنية ، ربانية السنة التاريخية ، وارتباطها بالله سبحانه ، بمعنى أن كل قانون من قوانين التاريخ ، هو قرار رباني ، هذا التأكيد من القرآن الكريم على ربانية السنة التاريخية وعلى طابعها الغيبي ، يستهدف ربط الانسان ، حتى حينما يريد أن يستفيد من القوانين الموضوعية للكون ، بالله سبحانه ، وإشعار الانسان بأن الاستعانة بالنظام الكامل لمختلف الساحات الكونية ، والاستفادة من مختلف القوانين والسنن التي تتحكم في هذه الساحات ، ليس انعزالاً عن الله سبحانه ، لأن الله يمارس قدرته من خلال هذه السنن ، فهي ارادة الله ، وهي ممثلة لحكمة الله وتدبيره في الكون .

---

(١) سورة الانعام : الآية / ٣٤

(٢) سورة البقرة : الآية / ٢١٤ .

وقد يتوهم البعض أن هذا الطابع الغيبي الذي يلبسه القرآن الكريم للسنن التاريخية ، يبعد القرآن عن إطار التفسير العلمي الموضوعي للتاريخ ، ويجعله يتجه اتجاه التفسير الإلهي للتاريخ ، الذي مثلته مدرسة من مدارس الفكر اللاهوتي على يد أغسطين وغيره من المفكرين المسيحيين اللاهوتيين .

لكن الحقيقة ، أن هناك فرقاً أساسيا بين الاتجاه القرآني في ربط سنن التاريخ بعالم الغيب ، وبين ما يسمى بالتفسير الإلهي للتاريخ الذي تبناه اللاهوت . وحاصل هذا الفرق : هو أن الاتجاه اللاهوتي ، للتفسير الإلهي للتاريخ ، يتناول الحادثة نفسها ، ويربط هذه الحادثة بالله سبحانه قاطعا صلتها مع بقية الحوادث ، فهو يطرح الصلة مع الله بديلا عن صلة الحادثة مع بقية الحوادث التي تزخر بها الساحة التاريخية ، والتي تمثل السنن والقوانين الموضوعية لهذه الساحة ، بينما القرآن الكريم ، لا يسبغ الطابع الغيبي على الحادثة بالذات ، لا ينتزع الحادثة التاريخية من سياقها ليربطها مباشرة بالسماء ، ولا يطرح صلة الحادثة بالسماء كبديل عن أوجه الانطباق والعلاقات والاسباب والمسببات على هذه الساحة التاريخية ، بل إنه يربط السنة التاريخية بالله ، ويربط اوجه العلاقات والارتباطات ، فهو يقرر أولاً : وجود روابط وعلاقات بين الحوادث التاريخية ، الا أن هذه الروابط والعلاقات بين الحوادث التاريخية، هي في الحقيقة تعبير عن حكمة الله سبحانه وتعالى ، وحسن تقديره ، وبنائه التكويني للساحة التاريخية . اذا أردنا أن نستعين بمثال لتوضيح الفرق بين هذين الاتجاهين من الظواهر الطبيعية ، نستطيع أن نستخدم هذا المثال : قد يأتي انسان فيفسر ظاهرة المطر ، التي هي ظاهرة طبيعية فيقول بأن المطر نزل بارادة من الله سبحانه ، ويجعل هذه الارادة بديلا عن الأسباب الطبيعية التي نجم عنها نزول المطر ، فكأن المطر حادثة لا علاقة لها ولا نسب ، وانما حادثة مفردة ترتبط مباشرة بالله بمعزل عن تيار الحوادث ، هذا النوع من الكلام يتعارض مع التفسير العلمي لظاهرة المطر ، لكن اذا جاء شخص وقال بأن ظاهرة المطر لها أسبابها وعلاقاتها وانها مرتبطة بالدورة الطبيعية للماء مثلا ، الماء يتبخر فيتحول

إلى غاز ، والغاز يتصاعد سحاباً والسحاب يتحول بالتدريج الى سائل نتيجة انخفاض الحرارة فينزل المطر ، الا أن هذا التسلسل السببي المتقن ، وهذه العلاقات المتشابكة بين هذه الظواهر الطبيعية ، هي تعبير عن حكمة الله وتدبيره وحسن رعايته . فمثل هذا الكلام لا يتعارض مع الطابع العلمي والتفسير الموضوعي لظاهرة المطر ، لأننا ربطنا هنا السنة بالله سبحانه ، لا الحادثة مع عزلها عن بقية الحوادث وقطع ارتباطها مع مؤثراتها وأسبابها .

اذن ، القرآن الكريم حينما يسبغ الطابع الرباني على السنة التاريخية ، لا يريد أن يتجه اتجاه التفسير الإلهي في التاريخ ، ولكنه يريد أن يؤكد أن هذه السنن ليست خارجة عن قدرة الله سبحانه ، وانما هي تعبير وتجسيد وتحقيق لهذه القدرة ، فهي كلماته وسننه وارادته وحكمته في الكون ، لكي يبقى الانسان دائماً مشدوداً إلى الله ، لكي تبقى الصلة الوثيقة بين العلم والايمان ، فهو في نفس الوقت الذي ينظر فيه إلى هذه السنن نظرة علمية ، ينظر أيضا اليها نظرة ايمانية .

وقد بلغ القرآن الكريم في حرصه على تأكيد الطابع الموضوعي للسنن التاريخية ، وعدم جعلها مرتبطة بالصدف ، ان نفس العمليات الغيبية ، أناطها في كثير من الحالات بالسنة التاريخية نفسها أيضا ، عملية الامداد الإلهي الغيبي ، الذي يساهم في كسب النصر ، هذا الامداد جعله القرآن الكريم مشروطا ومرتبطاً بالسنة التاريخية ، وظروفها ، وهذه الروح أبعد ما تكون عن أن تكون روحا تفسر التاريخ على أساس الغيب ، وانما هي روح تفسر التاريخ على أساس المنطق والعقل والعلم .

قرأنا في ما سبق صيغة من صيغ السنن التاريخية للنص القرآني : ﴿ . . . أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللهِ ﴾(١)

---

(١) سورة البقرة : الآية / ٢١٤

الآن تعالوا نقرأ الآيات التي تتحدث عن الامداد لنلاحظ كيف أن هذه الآيات ربطت هذا الامداد الإلهي الغيبي بتلك السنة نفسها أيضاً إذ تقول للمؤمنين .

﴿ أَلَنْ يَكفيَكُم أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بثلاثةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هٰذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إلاّ بُشْرىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾[1] . هنَاك إمداد إلهي غيبي ولكنه شرط بسنة التاريخ ، شرط بقوله : ﴿ بَلىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾ اجملت هنا شروط التاريخ التي فصلت في الآيات الأخرى .

فمن الواضح إذن ، أن الطابع الرباني الذي يسبغه القرآن الكريم ، ليس بديلا عن التفسير الموضوعي ، وانما هو ربط لهذا التفسير الموضوعي بالله سبحانه ، من أجل اكمال اتجاه الاسلام نحو التوحيد بين العلم والايمان في تربية الانسان المسلم

الحقيقة الثالثة :

والحقيقة الثالثة التي أكد عليها القرآن الكريم من خلال النصوص المتقدمة ، هي حقيقة اختيار الانسان وارادته . والتأكيد على هذه الحقيقة في مجال استعراض سنن التاريخ مهم جدا ، اذ سوف يأتي انشاء الله تعالى ، ان البحث في سنن التاريخ خلق وهماً عند كثير من المفكرين ، أن هناك تعارضاً وتناقضاً بين حرية الانسان واختياره وبين سنن التاريخ ، فإما أن نقول بأن للتاريخ سننه وقوانينه ، وبهذا نتنازل عن اراذة الانسان واختياره وحريته ، وإما أن نسلم بأن الانسان كائن حر مريد مختار ، وبهذا يجب أن نلغي سنن التاريخ وقوانينه ، ونقول بأن هذه الساحة التاريخية قد أعفيت من القوانين التي تحكم بقية الساحات الكونية .

---

(١) سورة آل عمران الآية /١٢٤ ـ ١٢٦

هذا الوهم ، وهْمُ التعارض والتناقض بين فكرة السنة التاريخية أو القانون التاريخي ، وبين فكرة اختيار الانسان وحريته ، كان من الضروري للقرآن الكريم أن يزيحه وهو يعالج هذه النقطة بالذات .

ومن هنا أكد سبحانه وتعالى ، على أن المحور في تسلسل الأحداث والقضايا انما هو ارادة الانسان ، وسوف أتناول انشاء الله فيما بعد ، الطريقة الفنية في كيفية التوفيق بين سنن التاريخ وارادة الانسان ، وكيف استطاع القرآن لكريم أن يجمع بين هذين الأمرين ، من خلال فحص للصيغ التي يمكن في اطارها صياغة السنة التاريخية ، لكن يكفي الآن أن نستمع إلى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[1] .

﴿ وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً ﴾[2] .

﴿ ... وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً ﴾[3] .

انظروا كيف أن السنن التاريخية لا تجري من فوق رأس الانسان بل تجري من تحت يده ، فان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وان لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماءاً غدقاً ، اذن ، هناك مواقف ايجابية للانسان تمثل حريته واختياره وتصميمه ، وهذه المواقف تستتبع ضمن علاقات السنن التاريخية ، جزاءاتها ومعلولاتها المناسبة ، فاختيار الانسان إذن ، له موضعه الرئيسي في الساحة التاريخية ، والنظرية القرآنية لا تفصل الانسان عن دوره الايجابي ، ولا تعطل فيه ارادته وحريته واختياره، وانما تؤكد أكثر فأكثر مسؤوليته على الساحة التاريخية .

ميدان سنن التاريخ

الآن ، بعد استعراضنا الخصائص الثلاث التي تتميز بها السنن التاريخية في

(١) سورة الرعد : الآية / ١١ .
(٢) سورة الجن : الآية / ١٦ .
(٣) سورة الكهف : الآية / ٥٩ .

القرآن الكريم ، نواجه هذا السؤال : ما هو ميدان هذه السنن التاريخية ؟

كنا حتى الآن نقول : بأن هذه السنن تجري على الساحة التاريخية ، لكن ، هل أن الساحة التاريخية بامتدادها هي ميدان للسنن التاريخية ، أو أن ميدان السنن التاريخية يمثل جزءاً من الساحة التاريخية ، بمعنى أن الميذان الـذي يخضع للسنن التاريخية ، بوصفها قوانين ذات طابع نوعي مختلف عن القوانين الأخرى الفيزيائية والفسلجية ، والبيولوجية والفلكية ، هذا الميدان الذي يخضع لقوانين ذات طابع نوعي مختلف ، هل تتسع له الساحة التاريخية ؟ هل يستوعب كل الساحة التاريخية ، أو يعبر عن جزء من الساحة التاريخية ؟

لكن قبل هذا يجب أن نعرف ماذا نقصد بالساحة التاريخية؟ الساحة التاريخية عبارة عن الساحة التي تحوي تلك الحوادث والقضايا التي يهتم بها المؤرخون ، فالسؤال هنا اذن هو هكذا ، هل أن كل هذه الحوادث والقضايا التي يربطها المؤرخون ، وتدخل في نطاق مهمتهم التاريخية والتسجيلية ، محكومة بالسنن التاريخية ، بسنن التاريخ ذات الطابع النوعي المتميز عن سنن بقية حدود الكون والطبيعة ، أو أن جزءاً معيناً من هذه الحوادث والقضايا هو الـذي تحكمه سنن التاريخ ؟

الصحيح أن جزءاً معيناً من هذه الحوادث والقضايا هو الذي تحكمه سنن التاريخ ، هناك حوادث لا تنطبق عليها سنن التاريخ ، بل تنطبق عليها القوانين الفيزيائية ، أو الفسلجية ، أو قوانين الحياة ، أو أي قوانين أخرى لمختلف الساحات الكونية الاخرى .

مثلا : موت أبي طالب ، موت خديجة في سنة معينة ، حادثة تاريخية مهمة تدخل في نطاق ضبط المؤرخين ، وأكثر من هذا ، هي حادثة ذات بعد في التاريخ ، ترتبت عليها آثار كثيرة ، ولكنها لا يحكمها سنة تاريخية ، بل تحكمها قوانين فسلجية ، فرضت أن يموت أبو طالب (رضوان الله عليه) ، وأن تموت خديجة (ع) ، في ذلك الوقت المحدد ، هذه الحادثة تدخل في نطاق صلاحيات

المؤرخين ، ولكن الذي يتحكم في هذه الحادثة هي قوانين فسلجة جسم أبي طالب وجسم خديجة ، قوانين الحياة التي تفرض المرض والشيخوخة ضمن شروط معينة وظروف معينة . حياة عثمان بن عفان ، طول عمر الخليفة الثالث حيث ناهز الثمانين ، طبعا هذه الحادثة كان لها أثر عظيم في تاريخ الاسلام ، لو قدر لهذا الخليفة أن يموت موتا طبيعيا وفقا لقوانينه الفسلجية قبل يوم الثورة ، كان من الممكن أن يتغير كثير من معالم التاريخ ، كان من المحتمل أن يأتي الإمام علي إلى الخلافة بدون تناقضات وبدون ضجيج ، لكن قوانين فسلجة جسم عثمان بن عفان اقتضت أن يمتد به العمر إلى أن يقتل من قبل الثائرين عليه من المسلمين ، هذه حادثة تاريخية ، أعني أنها تدخل في اهتمامات المؤرخين ، ولها بُعد تاريخي أيضا ، لعبت دورا سلبا أو أيجابا في تكييف الأحداث التاريخية الاخرى ، ولكنها لا تتحكم فيها سنن التاريخ ، ان الذي يتحكم في ذلك قوانين بنية جسم عثمان بن عفان ، قوانين الحياة ، وقوانين جسم الانسان التي أعطت لعثمان بن عفان عمرا طبيعياً ناهز الثمانين . مواقف عثمان بن عفان وتصرفاته الاجتماعية تدخل في نطاق سنن التاريخ ، ولكن طول عمر عثمان بن عفان مسألة أخرى ، مسألة حياتية أو مسألة فسلجية أو مسألة فيزيائية ، وليست مسألة تتحكم فيها سنن التاريخ .

اذن سنن التاريخ لا تتحكم على كل الساحة التاريخية ، لا تتحكم في كل القضايا التي يدرجها الطبري في تاريخه ، بل تحكم ميدانا معينا من هذه الساحة ، هذا الميدان يشتمل على ظواهر متميزة تميزاً نوعياً عن سائر الظواهر الكونية والطبيعية ، وباعتبار هذا التميز النوعي ، استحقت سنناً متميزة أيضاً تميزاً نوعياً عن سنن بقية الساحات الكونية .

المميز العام للظواهر التي تدخل في نطاق سنن التاريخ ، هو أن هذه الظواهر تحمل علاقة جديدة لم تكن موجودة في سائر الظواهر الأخرى الكونية والطبيعية والبشرية . الظواهر الكونية والطبيعية كلها تحمل علاقة بين مسبّب

وسبب ، بين نتيجة ومقدمات ، مثلاً الغليان ظاهرة طبيعية مرتبطة بظروف معينة ، بدرجة حرارة معينة ، بدرجة معينة من قرب هذا الماء من النار ، العلاقة هنا علاقة السببية ، علاقة الحاضر بالماضي ، بالظروف المسبقة المنجزة ، لكن هناك ظواهر على الساحة التاريخية تحمل علاقة من نمط آخر ونوع جديد ، وهي علاقةُ ظاهرةٍ بهدف ، علاقة نشاط بغاية ، أو ما يسميه الفلاسفة بالعلة الغائية ، تمييزاً لها عن العلة الفاعلية ، غليان الماء بالحرارة ، يحمل علاقة مع سببه ، مع ماضيه ، لكن لا يحمل علاقة مع غاية ومع هدف ، مالم يتحول إلى فعل انساني وإلى جهد بشري ، بينما العمل الانساني الهادف يحتوي على علاقة لا فقط مع السبب ، لا فقط مع الماضي ، بل مع الغاية التي هي غير موجودة حين انجاز هذا العمل ، وانما يترقب وجودها . أي العلاقة هنا علاقة مع المستقبل لامع الماضي ، الغاية دائما تمثل المستقبل بالنسبة الى العمل ، بينما السبب يمثل الماضي بالنسبة إلى هذا العمل .

فالعلاقة التي يتميز بها العمل الذي تحكمه سنن التاريخ هو انه عمل هادف ، عمل يرتبط بعلة غائية ، سواءا كانت هذه الغاية صالحة أو طالحة ، نظيفة أو غير نظيفة ، وهذه الغايات التي يرتبط بها هذا العمل الهادف المسؤول ، حيث انها مستقبلية بالنسبة إلى العمل ، فهي تؤثر من خلال وجودها الذهني في العامل لا محالة ، فتمنحه بذلك من الطموح والتطلّع المستقبلي ، ما يستطيع معه ان يجسّد ذاك الوجود الذهني حقيقة خارجية .

اذن فالمستقبل أو الهدف الذي يشكل الغاية للنشاط التاريخي ، يؤثر في تحريك هذا النشاط وفي بلورته من خلال الوجود الذهني ، أي من خلال الفكر الذي يتمثل فيه الوجود الذهني للغاية ضمن شروط ومواصفات ، حينئذ يؤثر في ايجاد هذا النشاط .

اذن حصلنا الآن على مميز نوعي للظاهرة التاريخية ، غير موجود بالنسبة إلى

سائر الظواهر الأخرى على ساحات الطبيعة المختلفة ، وهذا المميز ظهور علاقة فعل بغاية ، نشاط بهدف ، بالتعبير الفلسفي ، كون المستقبل محركا لهذا الفعل من خلال الوجود الذهني أي الفكر الذي يرسم للفاعل غايته . إذن فالسنن النوعية للتاريخ ، موضوعها ذلك الجزء من الساحة التاريخية الذي يمثل عملا له غاية ، عملا يحمل علاقة اضافية إلى العلاقات الموجودة في الظواهر الطبيعية ، وهي العلاقة بالغاية والهدف ، بالعلة الغائية .

ولكن ليس معنى ذلك بالضرورة ، إن يكون كل عمل له غاية عملاً تاريخياً تجري عليه سنن التاريخ ، بل يوجد بُعد ثالث لا بد أن يتوفر لهذا العمل لكي يكون عملا تحكمه سنن التاريخ .

البعد الأول : كان « السبب » .

والبعد الثاني : كان الغاية « الهدف » .

وأما البعد الثالث : فهو أن يكون لهذا العمل أرضية تتجاوز ذات الفرد العامل إلى المجتمع ، الذي يكون هذا الفرد جزءاً منه .

قد يأكل الفرد اذا جاع ، قد يشرب اذا عطش ، قد ينام اذا أحس بحاجته إلى النوم ، لكن هذه الاعمال على الرغم من انها أعمال هادفة أيضا ، تريد أن تحقق غايات ، ولكنها أعمال لا يمتد موجها أكثر من العامل ، خلافا لعمل يقوم به الانسان من خلال نشاط اجتماعي وعلاقات متبادلة مع أفراد جماعته . التاجر حينما يعمل عملا تجاريا . القائد حينما يعمل عملا حربيا . السياسي حينما يمارس عملا سياسيا . المفكر حينما يتبنى وجهة نظر في الكون والحياة . هذه الأعمال لها موج يتعدى شخص العامل ، هذا الموج يتخذ من المجتمع أرضية له ، ويمكننا أيضا أن نستعين بمصطلحات الفلاسفة فنقول : المجتمع يشكل علة مادية لهذا العمل ، نتذكر من مصطلحات الفلاسفة التمييز الأرسطي بين العلة الفاعلية والعلة الغائية والعلة المادية ، هنا نستعين بهذه المصطلحات لتوضيح الفكرة . يعني أن المجتمع باعتباره أرضية للعمل ، يشكل

علة مادية له ، في حالة من هذا القبيل ، يعتبر هذا العمل عملا تاريخيا ، يعتبر عملا للأمة وللمجتمع وان لم يكن المباشر في جملة من الأحيان الا فرد واحد ، او عدداً من الأفراد ، ولكن باعتبار الموج يعتبر عمل المجتمع ، اذن العمل التاريخي الذي تحكمه سنن التاريخ ، هو العمل الذي يكون حاملاً لعلاقة مع هدف وغاية ، ويكون في نفس الوقت ذا أرضية أوسع من حدود الفرد ، ذا موج يتخذ من المجتمع علة مادية له ، وبهذا يكون عمل المجتمع .

وفي القرآن الكريم ، نجد تمييزا بين عمل الفرد وعمل المجتمع ، ونلاحظ في القرآن الكريم انه من خلال استعراضه للكتب الغيبية الاحصائية ، تحدث عن كتاب للفرد ، وتحدث عن كتاب للامة ، عن كتاب يحصي على الفرد عمله ، وعن كتاب يحصي على الامة عملها ، وهذا تميز دقيق بين العمل الفردي الذي ينسب إلى الفرد وبين عمل الامة ، اي العمل الذي له ثلاثة أبعاد ، والعمل الذي له بعدان ، العمل الذي له بعدان لا يدخل الا في كتاب الفرد ، واما العمل الذي له ثلاثة أبعاد فهو يدخل في الكتابين معاً ، باعتبار البعدين في كتاب الفرد ويحاسب الفرد عليه ، وباعتبار البعد الثالث يدخل في كتاب الأمة ويعرض على الامة وتحاسب الامة على أساسه . لاحظوا قوله سبحانه وتعالى .

﴿ وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إلىٰ كتابِها الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . هَـٰذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بالحَقِّ انا كُنَّا نَسْتَنْسِخ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(١) .

هنا القران الكريم يتحدث عن كتاب للامة ، أمة جاثية بين يدي ربها ويقدم لها كتابها ، يقدم لها سجل نشاطها وحياتها التي مارستها كأمة ، هذا العمل الهادف ذو الابعاد الثلاثة يحتويه هذا الكتاب ، وهذا الكتاب ليس تاريخ الطبري ـ انظرو إلى العبارة ـ يقول :

---

(١) سورة الجاثية : الآية / ٢٨ ـ ٢٩ .

﴿ انَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

فهـو لا يسجل الـوقائـع الطبيعيـة ، الفسلجيّـة ، الفيزيائية، إنّمـا يحـدد ويستنسخ ما كانوا يعملون كأمة .

بحيث ينسب للامة وتكون الامة مدعوة إلى كتابها . هذا العمل هو الذي يحويه هذا الكتاب . بينما في آية اخرى نلاحظ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَكُلَّ انْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَـهُ يَوْمَ الْقِيَـامَةِ كِتَـاباً يَلقَـاهُ مَنْشُوراً ، اِقْرَأْ كِتابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾[1] .

هنا الموقف يختلف ، هنا كل انسان مرهون بكتابه ، لكل انسـان كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من اعماله ، من حسناته وسيئاته ، من هفواته وسقطاتـه ، من صعوده وهبوطه ، الكتاب الذي كتب بعلم مَنْ لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض والسماء . كل انسان قد يفكر ان بامكانه ان يخفي نقـطة ضعف ، ان يخفي ذنبا ، ان يخفي سيئة عن جيرانه ، أو قومه ، أو امته ، أو اولاده ، أو حتى عن نفسه ، ولكن هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها .

هذا كتاب الفـرد وذاك كتاب الامـة . هناك كتـاب لامة جـاثية بـين يدي ربها ، وهنا لكل فرد كتاب . هذا التمييز النوعي القرآني بين كتاب الامة وكتاب الفرد ، هو تعبير آخر عما قلناه ، من ان العمـل التاريخي هـو ذاك العمل الـذي يتمثـل في كتاب الامـة . العمل الـذي له ابعـاد ثلاثـة . بل ان الـذي يستظهـر ويلاحظ من عدد آخر من الآيات القرآنية الكريمة ، انـه ليس فقط يوجـد كتاب للفرد ويوجد كتاب للامة ، بل يوجد احضار للفرد ويوجد احضار للامة ، هناك احضاران بين يـدي الله سبحانـه ، الاحضار الفـردي يأتي فيـه كل انسـان فردا فـردا ، لا يملك ناصرا ولا معينـا ، الا العمل الصـالح والقلب السليم والايمـان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، هذا هو الاحضار الفردي . قال الله تعالى :

---

(١) سورة الاسراء : الآية / ١٣ .

﴿ إنْ كُلُّ مَنْ في السَّموات والارْض إلأَءاتى الرَّحْمن عَبْدا ، لَقَدْ احْصاهُمْ وَعَدَّهَمْ عَدّاً وَكلُّهم آتِيه يَوْمَ القِيامَةِ فَرْداً ﴾[1] .

وهناك احضار آخر ، احضار لـلامة بـين يدي الله سبحـانه وتعـالى ، كما يوجد هناك سجلان ، كذلك يوجد احضاران كما تقدم ، ترى كل امة جاثية كل امة تدعى إلى كتابها ، ذاك احضـار للجماعـة ، والمستأنس بـه من سياق الأيـات الكريمة ، ان هـذا الاحضار الثـاني يكون من اجـل اعادة العـلاقات إلى نصـابها الحق ، العلاقات في داخل كل امة قد تكون غير قـائمة عـلى اساس الحق ، قـد يكون الانسان المستضعف فيها جديرا بأن يكون في اعلى الامة ، هذه الامـة تعاد فيها العلاقات إلى نصابها الحق . هذا هو الشيء الذي سماه القرآن الكـريم بيوم التغـابن ، كيف يحصـل التغـابن ؟ . . يحصـل التغـابن عن طـريق اجتـماع المجموعة ، ثم كل انسان بقدر ما كان مغبونا في موقعـه ووجوده في الامـة يأخـذ حقه ، اسمَعوا قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يُجَمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجْمَعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُن ﴾[2] .

اذن فهنـاك سجلان : هنـاك سجل لعمـل الفرد ، وهنـاك سجـل لعمـل الامة ، وعمل الامة هو عبارة عما قلناه من العمل الذي يكون لـه ثلاثـة ابعاد ، بُعْدٌ من ناحية العامل هو ما يسميه ارسطو بـ « العلة الفاعلية » ، وبُعْدٌ من ناحية الهدف هو ما يسميه ارسطو بـ « العلة الغائية » ، وبُعْدٌ من ناحية الأرضية وامتداد الموج هو مـا يسمونـه بـ « العلة المادية » . هذا العمـل ذو الابعاد الثـلاثـة هـو موضوع سنن التاريخ ، وهو عمل المجتمع .

لكن لا ينبغي ان يوهم ذلك مـا توهمـه بعض المفكرين الاوروبيـين كهيغل وغيره ، من ان المجتمع كائن عملاق له وجود وحـدوي عضوي متميز عن سائر

---

(١) سورة مريم آية / ٩٥ .

(٢) سورة التغابن : الآية / ٩ .

الافراد ، وكل فرد فرد ليس الا بمثابة الخلية في هذا العملاق الكبير ، الذي يتخذ من كل فرد نافذة على الواقع ، بقدر ما يمكن ان يجسد في هذا الفرد من قابلياته هو ، ومن ابداعه هو ، اذن كل قابلية وكل ابداع ، ليسا إلا قابلية ذلك العملاق وإبداعه ، وكل فرد انما هو نافذة من النوافذ التي يعبر عنها ذلك العملاق الهيجلي .

هذا التصور ، اعتقد به جملة من الفلاسفة الاوروبيين تمييزا لعمل المجتمع عن عمل الفرد ، الا ان هذا التصور ليس صحيحا ، ولسنا بحاجة إلى الاغراق في الخيال إلى هذه الدرجة ، لكي ننحت هذا العملاق الاسطوري من هؤلاء الافراد ، ليس عندنا الا الافراد ، الا زيد وبكر وخالد ، ليس عندنا ذلك العملاق المستتر من ورائهم ، طبعا مناقشة هيجل من الزاوية الفلسفية تخرج عن حدود هذا البحث ، لان هذا التفسير الهيجلي للمجتمع مرتبط في الحقيقة بكامل الهيكل النظري لفلسفته، هذا التصور ليس صحيحا ، ولسنا بحاجة إلى مثل هذا الافتراض الاسطوري ، لكي نميز بين عمل الفرد وعمل المجتمع ، التمييز بين عمل الفرد وعمل المجتمع يتم من خلال ما اوضحناه من البعد الثالث . عمل الفرد هو العمل الذي يكون له بعدان ، فان اكتسب بعدا ثالثا كان عمل المجتمع ، باعتبار ان المجتمع يشكل أرضية له ، يشكل علة مادية له . يدخل حينئذ في سجل كتاب الامة الجاثية بين يدي ربها . هذا هو ميزان الفرق بين العملين .

اذن الشيء الذي نستخلصه مما تقدم ، ان موضوع السنن التاريخية هو العمل الهادف الذي يتخذ من المجتمع أو الأمة أرضية له ، على اختلاف سعة الموجة وضيق الموجة .

- ٤ -

صيغ السنن التاريخية في القرآن

حان الأوان لكي نتعرف على الصيغ المتنوعة التي تتخذها السنة التاريخية القرآنية .

كيف يتم التعبير موضوعياً عن القانون التاريخي في القرآن الكريم ؟

ما هي الاشكال التي تتخذها سنن التاريخ في مفهوم القرآن الكريم ؟

هناك ثلاثة أشكال تتخذها السنة التاريخية في القرآن الكريم ، لا بد من استعراضها ومقارنتها والتدقيق في أوجه الفرق بينها .

الشكل الاول : للسنة التاريخية ، هو شكل القضية الشرطية ، وفي هذا الشكل ، تتمثل السنة التاريخية في قضية شرطية تربط بين حادثتين او مجموعتين من الحوادث على الساحة التاريخية ، وتؤكد العلاقة الموضوعية بين الشرط والجزاء ، وانه متى ما تحقق الشرط تحقق الجزاء . وهذه صياغة نجدها في كثير من القوانين والسنن الطبيعية والكونية في مختلف الساحات الاخرى .

فمثلاً : حينما نتحدث عن قانون طبيعي لغليان الماء ، نتحدث بلغة القضية الشرطية ، نقول بأن الماء اذا تعرض للحرارة وبلغت الحرارة درجة مائة مثلا في مستوى معين من الضغط ، سوف يحدث الغليان ، هذا قانون طبيعي يربط بين الشرط والجزاء ،ويؤكد ان حالة التعرض للحرارة ، ضمن مواصفات معينة تذكر في طرف الشرط تستتبع حادثة طبيعية معينة ، وهي غليان هذا الماء ، هذا القانون مصاغ على نهج القضية الشرطية . ومن الواضح ان هذا القانون

الطبيعي لا ينبئنا عن تحقق الشرط وعدم تحققه ، لا ينبئنا عن ان الماء هل سوف يتعرض للحرارة أوّلا ؟ هل ان حرارة الماء ترتفع إلى الدرجة المطلوبة ضمن هذا القانون أو لا ؟ هذا القانون لا يتعرض لمدى وجود الشرط وعدم وجوده ، ولا ينبئنا بشيء عن تحقق الشرط ايجابا أو سلبا ، وانما ينبئنا عن ان الجزاء لا ينفك عن الشرط ، فمتى ما وجد الشرط وجد الجزاء ، وأن الغليان نتيجة مرتبطة موضوعيا بالشرط ، هذا تمام ما ينبئنا عنه هذا القانون المصاغ بلغة القضية الشرطية .

ومثل هذه القوانين ، تقدم خدمة كبيرة للانسان في حياته الاعتيادية ، وتلعب دورا عظيما في توجيهه ، لان الانسان ضمن تعرّفه على هذه القوانين ، يصبح بامكانه ان يتصرف بالنسبة إلى الجزاء ، ففي كل حالة يرى انه بحاجة إلى الجزاء يُعمِل هذا القانون ويُوفر شروطه ، ففي كل حالة يكون الجزاء متعارضا مع مصالحه ومشاعره ، يحاول الحيلولة دون توفر شروط هذا القانون .

اذن القانون الموضوع بصيغة القضية الشرطية ، موجِّه عملي للانسان في حياته .

ومن هنا تتجلى حكمة الله سبحانه في صياغة نظام الكون على مستوى القوانين وعلى مستوى الروابط المضطردة والسنن الثابتة ، لان صياغة الكون ضمن هكذا روابط وسنن ، هو الذي يجعل الانسان يتعرف على موضع قدميه ، وعلى الوسائل التي يجب ان يسلكها في سبيل تكييف بيئته وحياته والوصول إلى إشباع حاجته ، لو ان الغليان في الماء كان يحدث صدفة ومن دون رابطة قانونية مضطردة مع حادثة اخرى كالحرارة ، لما استطاع الانسان ان يتحكم في هذه الظاهرة ، او يخلقها متى ما كانت حياته بحاجة إليها ، ويتفاداها متى ما كانت حياته بحاجة إلى تفاديها ، إنما كان له هذه القدرة ، باعتبار أن هذه الظاهرة وضعت في موضع ثابت من سنن الكون ، وطرح على الانسان القانون الطبيعي

بلغة القضية الشرطية ، فأصبح يتصرف ازاء هذا القانون بوعي واختيار وارادة .

نفس الشيء نجده في الشكل الاول من السنن التاريخية القرآنية ، فان عددا كبيرا من السنن هذه في القرآن ، قد تمت صياغته على شكل القضية الشرطية التي تربط ما بين حادثتين اجتماعيتين ، أو تاريخيتين .

قرأنا في ما سبق ، استعراضا للآيات الكريمة التي تدل على سنن التاريخ في القرآن . جملة من تلك الآيات الكريمة مفادها هو السنة التاريخية بلغة القضية الشرطية ، فمثلاً الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

فمرجع هذا المفاد القرآني ، إلى ان هناك علاقة بين تغييرين : بين تغيير المحتوى الداخلي للانسان ، وبين الوضع الظاهري للبشرية ، متى ما وجد ذاك التغيير في أنفس القوم ، وجد هذا التغيير في بناء القوم وكيانهم ، هذه الآية إذن ، بيّن القانون فيها بلغة القضية الشرطية .

﴿ وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءاً غَدَقاً ﴾

قلنا في ما سبق ، ان هذه الآية الكريمة تتحدث بلغة القضية الشرطية عن سنة من سنن التاريخ ، تربط وفرة الانتاج بعدالة التوزيع ، كما هو الواضح من صياغتها النحوية ايضا .

﴿ وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْها الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً ﴾

هذه الآية أيضاً ، استنبطت سنة تاريخية بينت بلغة القضية الشرطية عندما

ربطت بين امرين ، بين تأمير الفساق والمترفين في المجتمع ، وبين دمار ذلك المجتمع وانحلاله ، فمتى ما وجد الشرط يوجد الجزاء ، هذا هو الشكل الاول من اشكال السنة التاريخية في القرآن .

الشكل الثاني : الذي تتخذه السنن التاريخية ، شكل القضية الفعلية الناجزة المحققة . وهذا الشكل ايضا نجد له امثلة وشواهد في القوانين الطبيعية والكونية . مثلا : العالم الفلكي حينما يصدر حكما علميا على ضوء قوانين مسارات الفلك ، بأن الشمس سوف تنكسف في اليوم الفلاني ، أو أن القمر سوف ينخسف كذلك ، هذه قضية علمية ، الا أنها قضية وجودية ناجزة ، وليست قضية شرطية ، ولذا لا يملك الانسان اتجاه هذه القضية أن يغير من ظروفها وأن يعدل من شروطها ، لأنها تخبر عن وقوع هذه الحادثة على أي حال . كذلك القرارات العلمية التي تصدر عن الانواء الجوية ، المطر ينهمر على المنطقة الفلانية ، هذا أيضا يعبر عن قضية فعلية وجودية لم تصغ بلغة القضية الشرطية ، وانما صيغت بلغة التنجيز والتحقيق ، بلحاظ مكان معين وزمان معين .

هذا هو الشكل الثاني من اشكال السنن التاريخية . وسوف اذكر فيما بعد انشاء الله عند تحليل عناصر المجتمع أمثلة لهذا الشكل من القرآن الكريم .

هذا الشكل من السنن التاريخية ، هو الذي أوحى في الفكر الاوروبي - كما سبقت الاشارة اليه - بتوهم التعارض بين فكرة سنن التاريخ وفكرة اختيار الانسان وارادته ، لان سنن التاريخ ما دامت هي التي تنظم مسار الانسان وحياة الانسان ، اذن ماذا يبقى لارادة الانسان ؟

هذا التوهم ، أدى ببعض المفكرين إلى القول بأن الانسان له دور سلبي فقط وليس دورا ايجابيا ، فهو يتحرك كما تتحرك الآلة وفقا لظروفها الموضوعية ، ولعله يأتي بعض التفصيل أيضا عن هذه الفكرة .

وذهب بعض آخر في مقام التوفيق ما بين هاتين الفكرتين ولو ظاهريا ،

إلى أن اختيار الانسان نفسه هو أيضاً يخضع لسنن التاريخ . وهذا الموقف يستبطن تضحية باختيار الانسان لكن بصورة غير مكشوفة .

وذهب بعض المفكرين الأوروبيين إلى اختيار موقف معاكس ، عندما اتجهوا إلى التضحية بسنن التاريخ لحساب اختيار الانسان ، بحجة أنه ما دام الانسان مختارا ، فلا بد من أن تستثنى الساحة التاريخية من الساحات الكونية في مقام التقنين الموضوعي ، فلا سنن موضوعية للساحة التاريخية حفاظا منهم على رادة الانسان واختياره .

وهذه المواقف كلها خاطئة ، لانها جميعا تقوم على وهم الاعتقاد بوجود تناقض أساسي بين مقولة السنة التاريخية ومقولة الاختيار الإنساني ، وهذا التوهم نشأ من قَصْر النظر على الشكل الثاني من اشكال السنة التاريخية تلك المصاغة بلغة القضية الفعلية الوجودية الناجزة ، لو كنا نَقْصُر النظر على هذا الشكل من سنن التاريخ ، والتزمنا بأنه يستوعب كل الساحة التاريخية ، لكان هذا التوهم وارداً ، ولكننا يمكننا ابطال هذا التوهم ، عن طريق الالتفات إلى الشكل الاول من اشكال السنة التاريخية ، الذي تصاغ فيه السنة التاريخية بوصفها قضية شرطية ، وكثيرا ما تكون هذه القضية الشرطية في شرطها معبرة عن ارادة الانسان واختياره ، باعتبار ان اختيار الانسان يمثل المحور في هذه القضية الشرطية لأنه شرطها . لكن ما هو الشرط ؟

الشرط : هو فعل الانسان ، هو ارادة الانسان
﴿ إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[1] ،

التغيير هنا أسند اليهم فهو فعلهم ، ابداعهم وارادتهم . وحينما يحتل ابداع الانسان واختياره موضوع الشرط في القضية الشرطية ، تصبح السنة التاريخية متلائمة تماما مع اختيار الانسان ، بل إن السنة حينئذ ، تزيد الإنسان

---

(١) سورة الرعد : الآية / ١١ .

اختيارا وقدرة وتمكنا من التصرف في موقفه ، عيناً كما كان القانون الطبيعي يزيد من قدرة الانسان على التحكّم في الغليان ، بعد أن عرف شروطه وظروفه ، كذلك السنن التاريخية ذات الصيغ الشرطية ، هي في الحقيقة ليست على حساب ارادة الانسان ، وليست نقيضا لاختيار الانسان بل هي مؤكدة لهذا الاختيار ، توضح للانسان نتائج الإختيار ، لكي يستطيع أن يقتبس ما يريده من هذه النتائج دون غيرها ، ويتعرّف على الطريق الذي يسلك به إلى ما أراد من هذه النتيجة أو تلك بوعي وادراك .

الشكل الثالث : للسنة التاريخية ، وهو شكل اهتم به القرآن الكريم اهتماما كبيرا ، هو السنة التاريخية المصاغة على صورة اتجاه طبيعي في حركة التاريخ ، لا على صورة قانون صارم حدّي ، ولكي يَتضح ذلك ، لا بد وان نطرح الفكرة الاعتيادية التي نعيشها في اذهاننا عن القانون .

القانون العلمي كما نتصوره عادة ، عبارة عن تلك السنّة التي لا تقبل التحدي ولا النقض من قبل الانسان وهو بالتالي محكوم لها ولا يستطيع الخروج عن دائرة طاعتها ، لانها قانون من قوانين الكون والطبيعة . يمكنه ان لا يصلي ، لان وجوب الصلاة حكم تشريعي وليس قانونا تكوينيا ، يمكنه أن يشرب الخمر ، لان حرمة شرب الخمر قانون تشريعي وليس قانونا تكوينيا ، لكنه لا يمكنه ان يتحدى القوانين الكونية والسنن الموضوعية ، مثلاً : لا يمكنه أن يجعل الماء لا يغلي اذا توفرت شروط الغليان ، كما لا يمكنه ان يؤخر الغليان لحظة عن موعده المعين ، لأن هذا قانون والقانون صارم ، والصرامة تأبى التحدي . هذه هي الفكرة التي نتصورها عادة عن القوانين ، وهي فكرة صحيحة إلى حد ما ، لكن ليس من الضروري ان تكون كل سنّة طبيعية موضوعية على هذا الشكل ، بحيث تأبى التحدي من قبل الانسان بهذه الطريقة ، بل هناك اتجاهات موضوعية في حركة التاريخ وفي مسار الانسان ، لكن مع شيء من المرونة ، بحيث انها تقبل التحدي ولو على شوط قصير ، وان لم تقبل التحدي على شوط طويل ، وهذا لا يعني أنها ليست اتجاهات تمثل واقعا موضوعيا في حركة

التاريخ ، هي اتجاهات ولكنها مرنة تقبل التحدي ، لكنها مع ذلك قد تحطم هذا المتحدي بسنن التاريخ نفسها . فمثلاً : نقول : بأن هناك في تركيب الانسان وتكوينه اتجاها موضوعيا لا تشريعيا إلى اقامة العلاقات المعينة بين الذكر والانثى في المجتمع ضمن اطار من أطر النكاح والاتصال ، هذا الاتجاه ليس تشريعياً وانما هو اتجاه موضوعي ، ركّب في طبيعة الانسان وتركيبته ، هذه سنة ، لكنها سنة على مستوى الاتجاه ، لا على مستوى القانون .

لماذا ؟

لان التحدي لهذه السنة لحظة أو لحظات ممكن ، أمكن لقوم لوط أن يتحدوا هذه السنة فترة من الزمن ، بينما لم يكن بامكانهم ان يتحدوا سنة الغليان بشكل من الاشكال ، الا ان تحدي هذه السنة يؤدي إلى أن يتحطم المتحدي على المدى الطويل ، والمجتمع الذي يتحدى هذه السنة يكتب بنفسه فناء نفسه ، لانه يتحدى ذلك عن طريق الوان من الشذوذ التي رفضها هذا الاتجاه الموضوعي ، وتلك الالوان من الشذوذ تؤدي إلى فناء المجتمع وإلى خرابه . وهذا ما حصل فعلاً لقوم لوط .

الاتجاه إلى توزيع الميادين بين المرأة والرجل ، اتجاه موضوعي وليس اتجاهاً ناشئا من قرار تشريعي ، اتجاه ركّب في طبيعة الرجل والمرأة ، ولكن هذا الاتجاه يمكن ان يتحدى ، يمكن استصدار تشريع يفرض على الرجل بأن يبقى في البيت ليتولى دور الحضانة والتربية ، وان تخرج المرأة إلى الخارج لكي تتولى مشاق العمل والجهد ، وبهذا يحصل التحدي لهذا الاتجاه . لكن هذا التحدي لن يستمر ، لان سنن التاريخ سوف تجيب على هذا التحدي ، لاننا بهذا سوف نخسر كل تلك القابليات التي زودت بها المرأة من قبل هذا الاتجاه لممارسة دور الحضانة والامومة ، وسوف نخسر كل تلك القابليات التي زود بها الرجل من اجل ممارسة دور يتوقف على الجلد والصبر والثبات وطول النفس . تماماً ، كما ان بناية تسلم نجارياتها إلى حداد وحداداتها إلى نجار ، يمكن ان تنشأ البناية

أيضا ، لكن هذه البناية سوف تنهار ، سوف لن يستمر هـذا التحدي عـلى شوط طويل .

وأهم مصداق يعرضـه القرآن الكـريم لهذا الشكـل من السنن : الدين ، فالقرآن الكريم يرى أن الدين نفسه ليس مجـرد تشريع وإنمـا هو سنـة موضـوعية من سنن التاريخ ، ولهذا يعرض الدين على شكلين : تارة يعرضه بوصفه تشريعا كما يقول عـلم الاصول ، كما في قوله تعـالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِن الـدِّين ما وَصّى به نُوحـاً وَالَّذِي اوْحَيْنـا إلَيْكَ وَمـا وَصَّيْنا بِـهِ إبْراهِيمَ وَمُـوسىٰ وَعِيسىٰ أنْ أقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيه كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُم إلَيْه ﴾[1] .

هنا يبين الـدين كتشريع ، كـأمر من الله سبحـانه ، لكن في مجـال آخر ، يبينه سنة من سنن التاريخ ، وقـانونـاً داخلاً في صميم تـركيب الانسان وفـطرته ، كـما في قوله تعالى :

﴿ فَـأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفـاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَـطَرَ النّاسَ عَلَيْهـا لا تَبْدِيـلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلٰكِنَّ اكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

فالدين هنا لم يعد مجرد تشريع وقرار من أعلى ، وانما هو فطرة للناس ، هو فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، يعني كما انك لا يمكنـك ان تنتزع من الانسان أي جزء من اجزائه التي تقوّمـه ، كذلـك لا يمكنك ان تنـتزع من الانسـان دينـه ، الـدين ليس مقـولـة حضـاريـة مكتسبـة يمكن اعـطاؤهـا ويمكن الاستغنـاء عنها ، لانها في حـالة من هـذا القبيل ، لا تكـون فطرة الله التي فـطر الناس عليها ، ولا تكون خلق الله الذي لا تبديل لـه ، بل تكـون من المكاسب التي حصل عليها الانسان من خلال تطوراته المدنية والحضارية على مرّ التاريخ .

الدين خلق الله

(١) سورة الشورى : الآية / ١٣ .

(٢) سورة الروم : الآية / ٣٠ .

﴿ فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاس عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ وكلمة « لا » هنا ليست ناهية بل نافية ، يعني هذا الدين لا يمكن أن ينفك عن خلق الله ما دام الانسان انساناً ، فالدين يعتبر سنّة لهذا الانسان .

ولكنها ليست سنة صارمة على مستوى قانون الغليان ، سنة تقبل التحدي على الشوط القصير ، كما كان بامكان تحدي سنة النكاح وسنة اللقاء والتزاوج الطبيعي بين الجنسين عن طريق الشذوذ الجنسي ، لكن على شوط قصير ، كذلك يمكننا ايضاً تحدي هذه السنة على شوط قصير عن طريق الالحاد ، ولكن هذا التحدي لا يكون الا على شوط قصير ، لان العقاب سوف ينزل بالمتحدي ، العقاب هنا ليس بمعنى العقاب الذي ينزل على من يرتكب مخالفة شرعية على يد ملائكة العذاب في السماء يوم القيامة ، وانما العقاب هنا ينزل من سنن التاريخ نفسها حيث يفرضه على كل أمة تريد أن تبدل خلق الله سبحانه ، ولا تبديل لخلق الله ، مع الالتفات إلى ان نزول هذا العقاب ليس فوريا بالضرورة ، لأن الفورية التي نفهمها في حياتنا الاعتيادية تختلف عنها بمعناها بلحاظ امتداد التاريخ الانساني . وهذا ما ارادت الآية التالية ان تلفت الانظار اليه . قال تعالى :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾[1] .

هذه الآية الكريمة تتحدث عن العذاب ، واقعة في سياق العذاب الجماعي الذي نزل بالقرى السابقة الظالمة ، ثم بعد ذلك يتحدث عن استعجال الناس في أيام رسول الله(ص) ،يقولون له أين هذا العقاب ؟ أين هذا العذاب ؟ لماذا لا ينزل بنا نحن الآن حيث كفرنا وتحديناك ، وصممنا آذاننا عن قرآنك ؟ القرآن هنا يتحدث عن السرعة التاريخية التي تختلف عن السرعة الاعتيادية فيقول :

---

(١) سورة الحج : الآية / ٤٧

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ ﴾ ، لانها سنة ، والسنة التاريخية ثابتة ، لكن :

﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾

اليوم الواحد في سنن التاريخ عند ربك باعتبارها كلمات الله كما قرأنا في ما سبق ، الف سنة . طبعا في آية أخرى عبّر بخمسين الف سنة ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾[1] .

الكلام هنا ناظر الى يوم القيامة ، إلى يوم تكون السماء كالمهل ، فيوم القيامة قدر بخمسين ألف سنة ، اما في الآية السابقة فهو يتكلم عن يوم توقيت نزول العذاب الجماعي وفقا لسنن التاريخ ، يقول : وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون . وبهذا يجمع بين هاتين الآيتين فلا تعارض .

اذن فهذا شكل ثالث من السنن التاريخية ، هو عبارة عن اتجاهات موضوعية في مسار التاريخ وفي حركة الانسان وتركيبه ، يمكن ان يتحدى على الشوط القصير ، ولكن سنن التاريخ لا تقبل التحدي على الشوط الطويل ، الا أن الشوط القصير والطويل هنا ليس بحسب طموحاتنا وحياتنا الاعتيادية ، لان اليوم الواحد في كلمات الله وسننه كألف سنة مما نحسب .

والدين هو المثال الرئيسي للشكل الثالث ، من أجل أن نعرف كيف ان الدين سنة من سنن التاريخ ؟ وليس هو مجرد تشريع بل حاجة اساسية موضوعية ، ما هو دوره ؟ ما هو موقعه ؟

لكي نعرف ذلك ، يجب أن نأخذ المجتمع ، ونحلل عناصره على ضوء

---

(١) سورة المعارج : الآية / ٤ ـ ٨ .

القرآن الكريم ، لنصل إلى مغزى قولنا : ان الدين سنة من سنن التاريخ .

كيف نحلل عناصر المجتمع ؟ نحلل عناصر المجتمع على ضوء هذه الآية لكريمة .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ، قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ انِّي اعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ ﴾[1] .

هذه الآية تعطينا أروع وادق وأعمق صيغة لتحليل عناصر المجتمع . ونحن سوف ندرس هذه العناصر ونقارن فيما بينها ، لنعرف في النهاية أن الدين سنة تاريخية ، وليس مجرد حكم شرعي قد يطاع وقد يعصى .

(١) سورة البقرة : الآية / ٣٠ .

- ٥ -
عناصر المجتمع فى القرآن

قلنـا ان القرآن الكـريـم يقدم الـدين لا بوصفـه مجرد قـرار تشريعي ، بل بوصفه سنة من سنن الحياة والتاريخ ، ومقـوماً أسـاسياً لخلق الله ولن تجـد لخلق الله تبديلاً ، ولكنهـا سنة من الشكـل الثالث . سنـة تقبل التحـدي على الشـوط القصـير ، ولكن المتحدي يعـاقب بسنن التاريـخ نفسهـا . وقـد أشـير إلى هـذه الخاصية ايضاً بقوله :

﴿ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ هـذه العبـارة التي ختمت بهـا الآيـة الكريمة :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

ففي هذه العبارة اشارة إلى هذه السنّة ، اي ان للناس ان يتخـذوا مواقف سلبية وإهمالية تجاه هذه السنة ، ولكنه اهمال على الشوط القصـير لا على الشـوط الطويل .

وقلنـا أيضاً بـأن توضيـح واقع هـذه السنة القـرآنية من سنن التـاريـخ ، يتطلب منا ان نحلل عنـاصر المجتمع ، فـما هي عناصر المجتمـع من زاوية نـظر القرآن الكريم ؟ ومـا هي مقومـات المركّب الاجتـماعي ؟ وكيف يتم التنفيذ بـين

---

(١) سورة الروم الآية / ٣٠ .

هذه العناصر والمقومات ؟ وضمن أي اطار ؟ ووفق اية معادلة ؟ هذه الاسئلة نحصل على جوابها في النص القرآني الشريف الذي تحدث عن خلق الانسان الاول :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴾[1] .

حينما نستعرض هذه الآية الكريمة ، نجد ان الله سبحانه ينبىء الملائكة بأنه قرر انشاء مجتمع على الارض ، فما هي العناصر التي يمكن استخلاصها من العبارة القرآنية التي تتحدث عن هذه الحقيقة العظيمة ؟

هناك ثلاثة عناصر يمكن استخلاصها من العبارة القرآنية :

أولاً ـ الانسان .
ثانياً ـ الارض أو الطبيعة على وجه عام .
﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ .

ثالثاً ـ العلاقة المعنوية التي تربط الانسان بالأرض وبالطبيعة ، وتربط من ناحية اخرى الانسان بأخيه الانسان ، وهذه العلاقة المعنوية هي التي سمّاها القرآن الكريم بالاستخلاف ، هذه هي عناصر المجتمع .

ونحن حينما نلاحظ المجتمعات البشرية ، نجد انها جميعا تشترك بالعنصر الاول والعنصر الثاني ، لا يوجد مجتمع بدون انسان يعيش مع أخيه الانسان ، ولا يوجد مجتمع بدون ارض أو طبيعة يمارس إنسانه عليها دوره الاجتماعي .

واما العنصر الثالث : وهو العلاقة ، ففي كل مجتمع علاقة كما ذكرنا ، ولكن المجتمعات تختلف في طبيعة هذه العلاقة ، وفي كيفية صياغة هذه الطبيعة .

---

(١) سورة البقرة الآية / ٣٠ .

فالعنصر الثالث هو العنصر المرن والمتحرك من عناصر المجتمع ، وكل مجتمع يبني هذه العلاقة المعنوية التي تربط الانسان بأخيه الإنسان من جانب ، وبالطبيعة من جانب آخر ، بشكل قد يتفق وقد يختلف مع طريقة بناء المجتمع الآخر لهٰذه العلاقة .

وهذه العلاقة لها صيغتان اساستان :

إحداهما : صيغة ثلاثية . والأخرى : صيغة رباعية .

الصيغة الرباعية : طرحها القرآن الكريم تحت اسم الإستخلاف ، هي الصيغة التي ترتبط بموجبها الطبيعة والانسان ويرتبط الانسان فيها بدوره مع أخيه الانسان .

هذه اطراف ثلاثة . فأين الطرف الرابع ؟ . هذا الطرف الرابع خارج عن اطار المجتمع ، ولكن الصيغة الرباعية للعلاقة الاجتماعية ، تعتبر هذا الطرف الرابع مقوما من المقومات الاساسية للعلاقة الاجتماعية على الرغم من ذلك الخروج ، هذا الطرف الرابع ، استبطنه المفهوم الذي طرحه القرآن الكريم : الاستخلاف . ونحن عند التحليل ، نجد ان الاستخلاف ذو اربعة اطراف ، لأنه يفترض مستخلِفا ايضا . لا بد من مستخلِف ومستخلَف عليه ، ومستخلَف . فهناك اضافة إلى الانسان واخيه الانسان والطبيعة طرف رابع هو المستخلِف ، والمستخلِف هو الله سبحانه ، والمستخلَف هو الانسان واخوه الانسان ، أي الجماعة البشرية ككل ، والمستخلف عليه هو الارض وما عليها ومن عليها ، فالعلاقة الاجتماعية ضمن صيغة الاستخلاف ، تكون ذات اطراف اربعة ، وهذه الصيغة ترتبط بوجهة نظر معينة نحو الحياة والكون تقول : بانه لا سيد ولا مالك ولا إله للكون وللحياة الا الله سبحانه ، وان دور الانسان في ممارسة حياته ، انما هو دور الاستخلاف والاستئمان ، وأي علاقة تنشأ بين الانسان والطبيعة فهي في جوهرها ليست علاقة مالك بمملوك ، وانما هي علاقة أمين على امانة استؤمن عليها ، وأي علاقة تنشأ بين الانسان واخيه الانسان ، مهما كان المركز الاجتماعي لهذا أو لذاك ، فهي علاقة استخلاف وتفاعل ، بقدر

ما يكون هذا الانسان او ذاك مؤدياً لواجبه اتجاه هذه الخلافة ، وليست علاقة سيادة او الوهية أو مالكية . وتوجد في مقابل هذه الصيغة الرباعية ، صيغة ثلاثية الاطراف ، تربط بين الانسان والانسان ، والانسان والطبيعة ، ولكنها تقطع صلة هذه الاطراف مع الطرف الرابع ، وتجرد تركيب العلاقة الاجتماعية عن البعد الرابع ، عن الله سبحانه وتعالى . وتفترض ان الانسان نفسه هو البداية . وبهذا تحولت نظرة كل جزء الى الجزء الآخر داخل هذا التركيب وهذه الصيغة . واختلت المعادلة ، واهتزت البنية الاجتماعية حيث وجدت الالوان المختلفة للملكية وللسيادة ، سيادة الانسان على أخيه الانسان بأشكالها المختلفة التي استعرضها التاريخ ، وذلك شيء طبيعي ، لأن إضافة الطرف الرابع للصيغة الرباعية ليس مجرد اضافة عددية ، بل ان هذه الاضافة تحدث تغييراً نوعياً في بنية العلاقة الاجتماعية ، وفي تركيب الاطراف الثلاثة الاخرى نفسها ، إذ يعود الانسان مع إخوانه من بني الانسان ، مجرد شركاء في حمل هذه الامانة والاستخلاف ، وتعود الطبيعة بكل ما فيها من ثروات ، وبكل ما عليها ومن عليها ، مجرد أمانة لا بد من رعاية واجبها واداء حقها

وقد تبنّى القرآن الكريم هذه الصيغة للعلاقة الاجتماعية كوجه بارز من وجوه الدين ، وكسنة تاريخية . ولكن كيف ؟

هذه الصيغة الرباعية عرضها القرآن الكريم على نحوين : عرضها تارة بوصفها فاعلية ربانية من زاوية دور لله سبحانه وتعالى في العطاء . وهذا هو العرض الذي قرأناه

« إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً » .

هذه العلاقة الرباعية معروضة في هذا النص الشريف باعتبارها عطاءاً من الله ، وجعلا يمثل الدور الايجابي والتكريمي من رب العالمين للانسان ، وعرض الصيغة الرباعية من زاوية ارتباطها بالانسان ، وتقبل الانسان لها ، وذلك في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ

فَأَبَيْنَ اَنْ يَحْمِلْنَها وَاشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَها الانْسانُ اِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾[1] .

فالامانة هي الوجه التقبلي للخلافة ، والخلافة هي الوجه الفاعلي والعطائي للامانة .

وهذه الامانة التي تقبلها الانسان وتحمّلها لم تعرض على هذا الانسان في هذه الآية ، بوصفها تكليفا أو طلبا ، وليس المقصود من تقبل الانسان لهذه الأمانة هو تقبله الخلافة على مستوى الامتثال والطاعة ، بقرينة ان هذا كان معروضا على السماوات والارض والجبال ايضا ، ومن الواضح انه لا معنى لتكليف السماوات والجبال والارض . ومعنى ذلك انه عرض تكويني لا عرض تشريعي ، أي أن هذه العطية الربانية كانت تفتش عن الموضع القابل لها في الطبيعة ، والمنسجم معها بطبيعته ، وبفطرته ، وبتركيبه التاريخي والكوني ، والانسان هو الكائن الوحيد الذي كان بحكم تركيبه وبُنْيَتِه ، وبحكم فطرة الله المزكورة فيه منسجماً دون غيره من الكائنات مع هذه العلاقة الاجتماعية ذات الاطراف الاربعة التي بها تصبح أمانة ، وخلافة . ومن هنا كان تقبله لها تقبلاً تكوينياً بحكم دخولها في تكوينه الانساني وفي تركيب مساره التاريخي .

ونلاحظ في هذه الآية الكريمة ، الاشارة إلى هوية هذه السنة التاريخية وانها سنة من الشكل الثالث ، سنة تقبل التحدي وتقبل العصيان ، ليست من تلك السنن التي لا تقبل التحدي ابدا ولو لحظة ، قال تعالى : ﴿ وَحَمَلَها الإنْسانُ انَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ هذه العبارة الاخيرة ﴿ انه كان ظَلُوماً جهولاً ﴾ ، تأكيد على طابع هذه السنة ، وان هذه السنة على الرغم من انها سنة من سنن التاريخ ولكنها تقبل التحدي ، تقبل ان يقف الانسان منها موقفا سلبيا ، هذا التعبير يوازي تعبير : ﴿ وَلٰكِنَّ اَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ في الآية السابقة .

اذن ، الآية السابقة استخلصنا منها ان الدين سنة من سنن الحياة ومن

---

(١) سورة الأحزاب : الآية / ٧٢ .

سنن التاريخ ، ومن هذه الآية نستخلص ان صيغة الدين للحياة ، التي هي عبارة عن العلاقة الاجتماعية الرباعية ، التي يسميها القرآن بالخلافة والامانة الاستخلاف ، سنة من سنن التاريخ في المفهوم القرآني .

فالحقيقة ، ان الآية الاولى والآية الثانية متطابقتان تماما في مفادهما ، لانه في الآية السابقة قال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾(١) .

فهذا تأكيد على أن ما هو الفطرة ، وما هو داخل في تكوين الانسان وتركيبه وفي مسار تاريخه هو الدين قيّماً على الحياة ومهيمناً عليها ، فهو بالتالي سنة لهذه الحياة وللتاريخ . والدين بهذا المنحى هو العلاقة الاجتماعية الرباعية الاطراف ، التي يدخل فيها الله بعدا رابعا ، لكي يحدث تغييراً في بنية هذه العلاقة ، لا لكي تكون مجرد اضافة عددية .

أما كيف كان هذا الطرف الرابع ، وهو المسْتخلِفُ سبحانه ، مقوماً اساسياً لمسار الانسان على الساحة التاريخية ؟ لكي نتعرف على ذلك ، لا بد من ان نتعرف على دور كل من الركنين الثابتين في العلاقة الاجتماعية وهما الانسان والطبيعة . هذان الركنان داخلان في الصيغة الثلاثية وداخلان في الصيغة الرباعية ، ومن هنا نسميهما بالركنين الثابتين في العلاقة الاجتماعية .

ما هو دور الانسان في عملية التاريخ من زاوية النظرة القرآنية للتاريخ وسنن الحياة ؟ ما هو دور الانسان في العلاقة الاجتماعية ؟ وما هو دور الطبيعة في العلاقة الاجتماعية ؟

على ضوء تشخيص هذين الدورين وتحديد الموقفين ، سوف يتضح دور الطرف الرابع الذي تتميز به الصيغة الرباعية عن الصيغة الثلاثية ، ويتضح أن هذا الطرف الرابع ، عنصر ضروري بحكم سنة التاريخ ، وتركيب خلقة الانسان ، ولا بد وأن يندمج مع الأطراف الأخرى لتكوين علاقة اجتماعية رباعية الأطراف .

(١) سورة الروم الآية / ٣٠ .

- ٦ -

القرآن
ودور الانسان في حركة التاريخ

الآن نتحدث عن دور الانسان في الحركة التاريخية من زاوية مفهوم القرآن الكريم .

من الواضح على ضوء المفاهيم التي قرأناها سابقا ، أن المحتوى الداخلي للانسان هو الاساس لحركة التاريخ ، التي تتميز عن كل الحركات الاخرى بانها حركة غائية لا سببية فقط ، غائية متطلعة إلى المستقبل . فالمستقبل هو المحرك لأي نشاط من النشاطات التاريخية . والمستقبل معدوم فعلا ، وانما يحرك من خلال الوجود الذهني ، الذي هو الحافز والمحرك والمدار لحركة التاريخ ، وهذا الوجود الذهني ، يعبر بجانب منه عن الفكر ، وفي جانب آخر منه عن الارادة ، وبالإمتزاج بين الفكر والارادة ، تتحقق فاعلية المستقبل ومحركيته للنشاط التاريخي على الساحة الاجتماعية .

والمحتوى الداخلي الشعوري للإنسان يتمثل في هذين الركنين الاساسيين ، وهما الفكر والارادة . اذن المحتوى الداخلي للانسان ، هو الذي يصنع هذه الغايات ، ويجسد هذه الاهداف من خلال مزجه بين فكرة وارادة .

وبهذا صحّ القول بأن المحتوى الداخلي للانسان هو القاعدة لحركة التاريخ ، فالبناء الاجتماعي العلوي بكل ما يضم من علاقات وانظمة وافكار وتفاصيل مرتبط بهذه القاعدة ، ويكون تغيره وتطوره تابعا لتغير هذه القاعدة

وتطورها ، فاذا تغير الاساس تغير البناء العلوي ، واذا بقي الاساس ثابتا ، بقي البناء العلوي ثابتا .

فالعلاقة بين المحتوى الداخلي للانسان والبناء الفوقي للمجتمع ، علاقة تبعية ، ومسبب بسبب ، وهي تمثل سنة تاريخية تقدم الكلام عنها في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[1] . هذه الآية واضحة في ان المحتوى الداخلي للانسان ، هو القاعدة والاساس للبناء العلوي ، للحركة التاريخية ، لان الآية الكريمة تتحدث عن تغييرين : احدهما تغيير اوضاع القوم وابنيتهم العلوية وظواهرهم : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ ومن الواضح ان المقصود من تغيير ما بالأنفس ، تغيير ما بأنفس القوم ، بحيث يكون المحتوى الداخلي كقوم وكأمة متغيرا ، والا فإن تغير الفرد الواحد أ الفردين أو الافراد ، لا يشكّل الاساس لتغير ما بالقوم

فالمحتوى النفسي والداخلي للامة كأمة ، لا لهذا الفرد أو لذلك الفرد ، هو الذي يعتبر أساساً وقاعدةللتغييرات في البناء العلوي للحركة التاريخية كلها .

والقرآن الكريم يؤمن بأن العمليتين يجب ان تسيرا جنباً إلى جنب ، عملية صنع الانسان لمحتواه الداخلي ، لفكره وإرادته ، مع البناء الخارجي ، ولا يمكن ان يفترض انفكاك البناء الخارجي عن البناء الداخلي ، الا اذا بقي البناء الخارجي بناءاً مهزوزاً متداعيا .

ولهذا سمى الاسلام عملية بناء المحتوى الداخلي اذا اتجهت اتجاهاً صالحاً « بالجهاد الأكبر » تأكيداً منه على قاعدية المحتوى الداخلي . وسمى عملية البناء الخارجي إذا اتجهت اتجاهاً صالحاً « الجهاد الأصغر » ، وربط الجهاد الأصغر بالجهاد الأكبر ، واعتبر أن الجهاد الأصغر اذا فصل عن الجهاد الأكبر فقد محتواه ومضمونه ، وقدرته على التغيير الحقيقي على الساحة التاريخية والاجتماعية .

(١) سورة الرعد الآية / ١١ .

ومن هنا نجد القرآن الكريم ، يعرض لحالة من حالات انفصال عملية البناء الخارجي عن عملية البناء الداخلي ، قال سبحانه :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾[1]

وما هوحي به هذه الآية الكريمة أن الإنسان اذا لم ينفذ بعملية التغيير إلى قلبه واعماق روحه ، ولم يبن نفسه بناءاً صالحاً لا يمكنه أبداً أن يطرح الكلمات الصالحة ، لأن الكلمات الصالحة إنما يمكن أن تتحول إلى بناء صالح في المجتمع ، إذا نبعت عن قلب يعمر بتلك القيم التي تدل عليها تلك الكلمات ، وإلا فتبقى الكلمات مجرد الفاظ جوفاء دون أن يكون لها مضمون ومحتوى .

فمسألة القلب هي التي تعطي للكلمات معناها ، ولعملية البناء الخارجي أهدافها ومسارها .

الى هنا عرفنا أن الأساس والقاعدة في حركة التاريخ ، هو المحتوى الداخلي للانسان ، وهنا نتساءل :

محورية المثل الاعلى

ما هي نقطة البدء في بناء هذا المحتوى الداخلي للانسان ؟ وما هو المحور الذي يستقطب عملية بناء المحتوى الداخلي للإنسانية؟

المحور الذي يستقطب عملية البناء الداخلي للإنسانية هو المثل الاعلى .

لقد عرفنا فيما سبق ، ان المحتوى الداخلي للانسان يجسد الغايات التي تحرك التاريخ ، من خلال وجودات ذهنية تمتزج فيها الارادة بالتفكير . وهذه الغايات جميعا تنبثق عن وجهة نظر رئيسية إلى مثل اعلى للانسان في حياته ، هو الذي يحدد الغايات التفصيلية ، وينبثق عنه هذا الهدف الجزئي وذلك الهدف

---

(١) سورة البقرة الآية / ٢٠٥ .

الجزئي ، فالغايات بنفسها محركات للتاريخ ، وهي بدورها نتاج لقاعدة اعمق منها في المحتوى الداخلي للانسان ، وهو المثل الأعلى الذي تتمحور فيه كل تلك الغايات ، وتعود اليه كل تلك الاهداف .

فبقدر ما يكون المثل الأعلى للجماعة البشرية صالحاً وعالياً وممتداً ، تكون الغايات صالحة وممتدة ، وبقدر ما يكون هذا المثل الأعلى محدودا أو منخفضا ، تكون الغايات المنبثقة عنه محدودة ومنخفضة ايضا .

وهذا المثل الأعلى يرتبط ويتحدَّد من قبل كل جماعة بشرية ، على اساس وجهة نظرها العامة نحو الكون والحياة ، وكلما كانت الطاقة الروحية والرؤية الفكرية للجماعة البشرية تتناسب مع ذلك المثل الأعلى ومع وجهة نظرها إلى الحياة والكون كلما تحققت ارادتها للسير في طريق هذا المثل مع ما يتخلله من منعطفات ، وما ينتصب على جانبيه من علامات .

وكما ان الحركة التاريخية تتميّز عن أي حركة أخرى في الكون ، بانها حركة غائية هادفة ، كذلك تتمايز الحركات التاريخية انفسها بعضها عن بعض بمثلها العليا . فلكل حركة تاريخية مثلها الأعلى ، وهذا المثل الأعلى هو الذي يحدد الغايات والاهداف ، وهذه الاهداف والغايات بدورها هي التي تحدد النشاطات والتحركات ضمن مسار ذلك المثل الأعلى .

والقرآن الكريم يطلق على المثل الأعلى في جملة من الحالات اسم الإلّه ، باعتبار ان المثل الأعلى هو القائد الآمر المطاع الموجِّه ، وهذه صفات يراها القرآن للإلّه ، لأنه هو الذي يصنع مسار التاريخ . حتى ورد في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أرأيتَ مَنِ اتَّخَذَ إلهَهُ هَواه ﴾[1] ، حيث عبر حتى عن الهوى بأنه إلّه ، حينما يتصاعد هذا الهوى تصاعدا مصطنعا فيصبح هو المثل الأعلى ، وهو الغاية القصوى لهذا الفرد أو لذاك . فالمثل العليا بحسب التعبير القرآني والديني هي آلهة في الحقيقة ، لانها هي المعبودة حقا ، وهي الآمرة والناهية والمحركة حقا ،

(١) سورة الفرقان الآية / ٤٣ .

اقسام المثل العليا

وهذه المثل العليا التي تتبناها الجماعات البشرية على ثلاثة اقسام :

القسم الأول :

المثل الأعلى الذي يستمد تصوره من الواقع نفسه ، ويكون منتزعا من واقع ما تعيشه الجماعة البشرية من ظروف وملابسات ، أي ان الوجود الذهني الذي صاغ المستقبل هنا ، لم يستطع ان يرتفع على هذا الواقع ويتجاوزه ، بل انتزع مثله الأعلى من هذا الواقع بحدوده ، وقيوده ، وشؤونه .

وحينما يكون المثل الأعلى منتزعا عن واقع الجماعة بحدودها وقيودها وشؤونها يصبح حالة تكرارية ، ومجرد محاولة لتجميد هذا الواقع وحمله إلى المستقبل ، بدلا عن التطلع إلى المستقبل وتحويلاً له من حالة نسبية ومن أمر محدود إلى أمر مطلق ، إلى حقيقة مطلقة لا يتصور الانسان شيئا وراءها ، ولهذا سوف يكون المستقبل تكرارا للماضي ، ومعه لن تستطيع الجماعة البشرية ان تتجاوز الواقع وان ترتفع بطموحاتها عنه .

ما السبب ؟

وتَبَنِّي هذا النوع من المثل العليا له احد سببين :

السبب الاول : نفسي هو عبارة عن الالفة والعادة والخمول والضياع ، ومن الواضح أنه اذا انتشرت هذه الحالة النفسية : حالة الخمول والركود والالفة والضياع في مجتمع فانه سوف يصاب بالجمود ، لانه سوف يصنع الهه من واقعه ، وسوف يحول هذا الواقع النسبي المحدود الذي يعيشه إلى حقيقة مطلقة ، إلى مثل اعلى لا يرى وراءه شيئا .

وهذا في الحقيقة هو ما عرضه القرآن الكريم في كثير من الآيات التي تحدثت عن المجتمعات التي واجهت الانبياء حينما جاؤوها بمثل عليا حقيقية ، ترتفع عن الواقع وتريد ان تنتزعه من حدوده النسبية إلى وضع آخر ، واجه

هؤلاء الانبياء مجتمعات سادتها حالة الالفة والعادة والتميع التي جسّدها ردّ أفرادها بمنطق موحّد مكرور :

إنا وجدنا آباءنا على هذه السنة والطريقة ، ونحن متمسكون بمثلهم الأعلى . سيطرة الواقع على اذهانهم ، وتغلغل الحس في طموحاتهم ، بلغ إلى درجة تحول هذا الإنسان من خلالها إلى انسان حسي لا إلى انسان مفكر ، إلى انسان يكون ابن يومه وابن واقعه دائماً ، لا أبا يومه ولا أبا واقعه ، ولهذا لا يستطيع ان يرتفع على هذا الواقع

استمعوا إلى القرآن الكريم وهو يقول :

﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(1) .

﴿ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُم لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(2) . ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾(3) ، ﴿ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾(4) ، ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُم لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، ، قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾(5) ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾(6) .

في كل هذه الآيات ، يستعرض القرآن الكريم السبب الاول لتبني المجتمع لمثلٍ هذا المثل الأعلى المنخفض هؤلاء بحكم الالفة والعادة ، وبحكم

---

(1) سورة البقرة الآية / ١٧٠ .
(2) سورة المائدة الآية / ١٠٤ .
(3) سورة يونس الآية / ٧٨ .
(4) سورة هود الآية / ٦٢ .
(5) سورة ابراهيم : الآية / ١٠ .
(6) سورة الزخرف الآية / ٢٢ .

التميّـع والفراغ ، وجـدوا سنة قـائمـة ، ووضعـا قـائـما فلم يسمحـوا لانفسهم بتجاوزه ، بل جسدوه كمثل اعلى وعارضوا به دعوات الانبياء على مر التاريخ .

السبب الثـاني : اجتـماعي ، هـو عبـارة عن التسلط الفـرعـوني عـلى مـرّ التاريخ ، الفراعنة على مر التاريخ حينما يحتلون مراكزهم يجدون في أي تطلع إلى المستقبل ، وفي أي تجاوز للواقع الذي سيـطروا عليه ، زعـزعة لـوجودهم وهـزّاً لمراكزهم .

ولـذا ، كان من مصلحـة فرعـون على مـرّ التاريـخ ، ان يغمض عيـون النـاس على هذا الواقع ، وان يحول الواقع الذي يعيشه مع الناس إلى مطلق ، إلى إلّه ، إلى مثل أعلى لا يمكن تجاوزه ، فتتجمد الامة في حاضرها ولا تطمـح إلى التفيش عن مستقبل لها . هنا السبب اجتماعي لا نفسي ، السبب خارجي لا داخلي .

وهذا ايضا ما عرضه القرآن الكريم :

﴿ وَقَالَ فِرْعَونُ يا أَيُّهَا الْمَلأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرِي ﴾[1] .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إلاَّ مَا أَرىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إلاَّ سَبِيلَ الرَّشادِ ﴾[2] .

هنا فرعون يقول : مـا أريكم الا ما ارى ، يـريد ان يضـع الناس الـذين يعبدونه كلهم في اطـار رؤيته ، يحـول هذه النـظرة وهذا الـواقع ، إلى مـطلق لا يمكن تجاوزه ، لأنه يرى في تجاوزه خـطراً عليه . وفي نفس هـذا الإتجاه ، تشـير الآية الكريمة :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنـا مُوسىٰ وَأَخـاهُ هٰارُونَ بـآياتِنـا وَسُلْطانٍ مُبِين . إلىٰ فِـرْعَـوْنَ وَمَلأِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْمـاً عالِـينَ . فَقالُـوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلنـا وَقَوْمُهُـما لَنا عابِدُونَ ﴾[3] .

---

(١) سورة القصص الآية / ٣٨ .

(٢) سورة غافر الآية / ٢٩ .

(٣) سورة المؤمنون : الآية / ٤٥ ـ ٤٧ .

اذن ، هـذا التجميد ضمن اطـار الواقـع الذي تعيشـه الجـماعـة ، أيـة جماعـة بشرية ، ينشأ من حرص أولئك الذين تسلطوا على هذه الجماعة على أن يضمنـوا وجودهم ، ويضمنوا الواقع الـذي هم فيه وهم بُنَـاتُه . والقـرآن الكريم يسمي هـذا النوع من القـوى التي تحاول ان تحـول هذا الـواقـع المحـدود إلى مـطلق ، وتحصر الجماعة البشريـة في أطار هـذا المحدود ، يسمي هـذا بالـطاغوت . قـال سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾(١) .

لاحـظوا ذكر صفـة اسـاسيـة مميـزة لمن اجتنب عبـادة الطاغوت .

مـا هي الصفة الأسـاسيـة المميزة التي ذكـرهـا القـرآن لمن اجتنب عبـادة الطاغوت ؟

قال تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾

يعني لم يجعلوا هنـاك قيدا عـلى أذهـانهم ، أو اطـاراً محـدودا لا يمكنهم ان يتجـاوزوه ، بل جعلوا الحقيقـة مـدار همّهم ، ولهـذا يستمعـون القـول فيتبعـون أحسنه ، فهم في حالـة طموح ، وتـطلّع وموضـوعية ، في حـالة تسمـح لهم بان يجدوا الحقيقة . بينما لو كانوا يعبدون الطاغـوت ، فسوف يكـونون في اطـار هذا الواقع الذي يريـده الطاغـوت ، ولن يستطيعـوا أن يستمعوا إلى القـول فيتبعون أحسنه ، وانما يتبعون فقط ما يراد لهم ان يتبعوه . هـذا هو السبب الثـاني لاتباع وتبني هذه المُثُل .

وخلاصة ما مرّ بنا حتى الآن : أن التاريخ يتحرك من خلال البناء الداخلي

(١ و٢) سورة الزمر الآية / ١٧ ـ ١٨ .

للانسان ، الذي يصنع له غاياته التي تُبنى على أساس المثل الأعلى الذي تنبثق عنه تلك الغايات . لكل مجتمع مثل أعلى ، ولكل مثل أعلى مسار ومسيرة ، وهذا المثل الأعلى هو الذي يحدد في تلك المسيرة معالم الطريق ، وهذا المثل الأعلى على ثلاثة أقسام ، استعرضنا القسم الأول وهو المثل الأعلى الذي ينبثق تصوره عن الواقع الذي تعيشه الجماعة ، ويكون منتزعا منه ، وتكون الحركة التاريخية في ظل هذا المثل الأعلى حركة تكرارية ، أخذ الحاضر لكي يكون هو المستقبل ، وقلنا بأن تبني هذا النوع من المثل الأعلى يعود الى احد سببين بحسب تصورات القرآن الكريم :

السبب الأول : سبب نفسي ، هو الألفة والعادة والضياع .

والسبب الآخر : سبب خارجي ، وهو تسلط الفراعنة والطواغيت على مرّ التاريخ .

وهذا المثل الأعلى المنخفض ، غالباً ما يتخذ طابع الدين ، وإسباغ نوع من القداسة عليه من قبل الطواغيت ليحصّنوه من أية محاولة تمرد عليه .

وفي الايات الكريمة المتقدمة ، التي كانت تحكي موقف الأمم السابقة من انبيائها ، ورفضها لدعواتهم بحجة التمسك بعبادة الأباء والاجداد ، بما تستبطنه من جمود على المثل الأعلى لذلك السلف المتحجر المتقوقع .

اذن المثل الأعلى لا ينفك عن الثوب الديني ، سواء كان ثوبا دينيا صريحا ، أو ثوبا دينيا مستترا مبرقعا تحت شعارات اخرى ، فهو في جوهره دين ، وفي جوهره عبادة وانسياق . الا ان هذه الاديان التي تفرزها هذه المثل العليا المنخفضة اديان محدودة تبعا لمحدودية نفس هذه المثل ، وإن حُوِّلَت بصورة مصطنعة إلى مطلقات . هذه الاديان هي أديان التجزئة في مقابل دين التوحيد ، الذي سوف نتكلم عنه حينما نتحدث عن مثله الأعلى القادر على استيعاب البشرية بابعادها ، وهذه الآلهة التي يفرزها الانسان بين حين وحين ، هي التي يعبر عنها القرآن الكريم بقوله :

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾[1] .

ولـذلـك فهـذا كله لا يمكن ان يكـون هـو المصعَد الحقيقي للمسـيرة البشرية ، لان المسيرة البشرية لا يمكن ان تخلق إلهها بيدها .

ومن هنا ، اذا تقدمنـا خطوة في تحليـل ومراقبـة اوضاع هـذه الامة ، التي تتمسك بمثّل من هذا القبيل ، نجد ان هذه الامة بالتدريج سـوف تفقد ولاءها لهذا المثل ايضا ، لأنه بعـد ان يفقد فـاعليته وقـدرته عـلى العطاء ، ويصبح أمراً مفروضا ومحسوسا وملموسا ، فإن القاعـدة الجماهـيرية الـواسعة في هـذه الامة ، سوف تتمزق وحدتها ، لأن وحدة هذه القاعدة انما هي بالمثـل الواحـد ، فاذا ضاع المثل ضاعت هذه القاعدة .

وتكون كما وصف القرآن الكريم :

﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُم شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهم شَتّىً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ ﴾[2] .

بأسهم بينهم شديد ، باعتبار أن التناقضات تبدأ في داخل هذه الأمـة التي لا يجمعها مثل أعلى ، بل هي عبارة عن قلوب متفرقـة وأهواء متشتتـة ، وارواح متبعثرة ، وعقول مجمـدة ، وفي حالـة من هذا القبيـل ، سوف ينصرف كـل فرد فيهـا إلى همومـه الصغيرة وقضـاياه المحـدودة ، إلى تفكـيره في امـوره الخـاصـة ، كيف يصبح ؟ كيف يمسي ؟ كيف يأكل ؟ كيف يشرب ؟ كيف يوفر الراحة والاستقرار له ولاولاده ولـعائلته ؟ أي راحة ؟ أي استقـرار ؟ الراحـة بالمعنى الـرخيص من الراحة ، والإستقرار بالمعنى الضيق من الاستقرار .

سقوط المثل الاعلى وسنن التاريخ

وقد علمنا التاريخ انه في حالـة من هذا القبيـل توجـد ثلاثـة اجراءات ،

---

(١) سورة النجم الآية / ٢٣ .

(٢) سورة الحشر الآية / ١٤ .

ثلاث بدائل يمكن ان تنطبق على حالة هذه الامة الشبح .

الإجراء التاريخي الأول : هو ان تتداعى هذه الامة أمام غزو عسكري من الخارج ، لان هذه الامة التي افرغت من محتواها ، وتخلّت عن وجودها كأمة ، يمكن أن تتداعى أمام غزو من الخارج ، وهذا ما وقع بالفعل للمسلمين ، فبعد أن فقد المسلمون مثلهم الأعلى ، وفقدوا ولاءهم لهذا المثل الأعلى سقطت حضارتهم بأيدي التتار .

الإجراء التاريخي الثاني : هو الذوبان والانصهار في مثل أعلى اجنبي مستورد من الخارج لكي تعطيه ولاءها ، وتمنحه قيادتها .

الإجراء التاريخي الثالث : أن ينشأ في أعماق هذه الأمة ، شعور بضرورة إعادة المثل الأعلى من جديد بمستوى العصر الذي تعيشه تلك الأمة إلى مركزه ليؤدي دوره الريادي من جديد .

هذان الاجراءان ، الإجراء الثاني والإجراء الثالث ، وقفت الأمة الاسلامية امامها على مفترق طريقين حينما دخلت عصر الاستعمار ، كان هناك طريق يدعوها إلى الانصهار في مثل أعلى من الخارج ، هذا الطريق الذي طبقه جملة من الحكام في بلاد المسلمين : « رضاخان » في ايران ، و « أتاتورك » في تركيا ، حاول هؤلاء ان يجسدوا المثل الأعلى للانسان الاوروبي المنتصر ، ويطبقوا هذا المثل الأعلى ويكسبوا ولاء المسلمين انفسهم له ، بعد أن اضاعوا مثلهم الأعلى الأصيل . بينما اطلق رواد الفكر الاسلامي في بدايات عصر الاستعمار وفي اواخر الفترة التي سبقت عصر الاستعمار ، جهودهم في سبيل الاجراء الثالث ، في سبيل إعادة الحياة إلى الاسلام من جديد ، وتقديمه بلغة العصر وبمستوى حاجات المسلمين

الامة تتحول إلى شبح فتواجه احد هذه الاجراءات الثلاثة .

القسم الثاني :

كل ما تقدم ، كان يدور حول القسم الأول من المثل العليا التي يمكن ان

تتبناها الجماعات البشرية ، وهو المثل الأعلى الهابط الذي يؤدي بالأمة إلى الجمود والتقوقع ثم الانهيار .

والآن ، ننتقل إلى الحديث عن القسم الثاني .

ونحن إذا رجعنا خطوة إلى الوراء ـ هذا ما سوف اشرح معناه بعد لحظات ـ فاننا سوف نواجه النوع الثاني من الالهة ، من المثل العليا . هذا النوع الثاني يعبر عن كل مثل أعلى للامة يكون مشتقا من طموحها وتطلعها إلى المستقبل . ليس هذا المثل تعبيراً تكراريا عن الواقع ، بل هو تطلع إلى المستقبل ، تحفز نحو الابداع والتطوير ، ولكنّ هذا المثل منتزع عن خطوة واحدة من المستقبل ، أي ان هذا الطموح الذي منه انتزعت الامة مثلها ، كان طموحاً محدوداً مقيدا لم يستطيع ان يتجاوز المسافات الطويلة ، وانما استطاع ان يكوّن رؤية مستقبلية محدودة ، وهذه الرؤية المستقبلية المحدودة انتزع منها مثله الأعلى .

وفي هذا المثل الأعلى جانب موضوعي صحيح ، ولكنه يحتوي على امكانيات خطر كبير ، أما الجانب الموضوعي الصحيح ، فهو ان الانسان عبر مسيرته الطويلة لا يمكنه ان يستوعب المطلق بل نفحة بسيطة منه ، وهذه المحدودية في دائرة الاستيعاب البشري أمر صحيح وموضوعي ، ولكن الخطر يكمن في ان يحوّل الانسان هذه النفحة المحدودة في ذاتها إلى مطلق ينتزع منه مثله الأعلى ، وبهذا يحوّل اضمامة النور البسيطة إلى نور السموات والأرض !؟ لأن الذهن البشري محدود .

ومن هنا ، كان لا بد لهذا المثل الأعلى ـ باعتبار محدوديته ـ من أن يصل إلى حدوده القصوى ، وحينئذ سوف يتحول هذا المثل نفسه إلى قيد للمسيرة ، وعائق عن التطور ، ومجمِّد لحركة الانسان لانه اصبح مثلا ، أصبح آلهاً ، أصبح ديناً ؛ أصبح واقعاً قائماً ، وحينئذ سوف يكون بنفسه عقبة أمام استمرار زحف الانسان نحو كماله الحقيقي .

وهذا المثل الذي يعمم خطأ . عندما يحوّل من محدود إلى مطلق، خطأ

التعميم فيه ، تارة بأن يكون تعميما افقيا خاطئا ، وأخرى تعميما زمنيا خاطئا .

التعميم الافقي الخاطيء :

ان ينتزع الانسان من تصوره المستقبلي مثلا ، ويعتبر ان هذا المثل يضم كل قيم الانسان التي يجاهد من اجلها ، ويناضل في سبيلها . بينما هذا المثل على الرغم من صحته ، لا يمثل الا جزءاً من هذه القيم . فهذا التعميم تعميم افقي خاطيء .

وكمثال على ذلك ، نأخذ الانسان الاوروبي الحديث في بدايات عصر النهضة ، حيث جعل الحرية مثلا أعلى ، لانه رأى ان الانسان الغربي كان محطما ومقيدا ، كانت على يديه الاغلال في كل ساحات الحياة ، كان مقيدا في عقائده العلمية والدينية بحكم الكنيسة وتعنتها ، كان مقيداً في قوته ورزقه بأنظمة الاقطاع ، كان مقيدا اينما يسير ، اراد الانسان الاوروبي الرائد لعصر النهضة ان يحرر هذا الانسان من هذه القيود ، من قيود الكنيسة ، من قيود الاقطاع ، اراد ان يجعل من الانسان كائناً مختاراً ، اذا اراد ان يفعل فعل ، يفكر بعقله لا بعقل غيره ، ويتصور ويتأمل بذاته ، ولا يستمد هذا التصور كصيغ ناجزة من الآخرين .

وهذا شيء صحيح ، الا ان الشيء الخاطيء في ذلك . هو التعميم الافقي ، فان هذه الحرية بمعنى كسر القيود عن هذا الانسان ، قيمة من القيم ، ولكن هذا وحده لا يصنع الانسان ، انت لا تستطيع ان تصنع الانسان بان تكسر عنه القيود وتقول له افعل ما شئت ، لا يوجد انسان ولا كائن ، لا يوجد اقطاعي ولا قسيس ولا سلطان ولا طاغوت ، يضطرك إلى موقف أو يفرض عليك موقفا ، هذا وحده لا يكفي ، فان كسر القيود انما يشكل الاطار للتنمية البشرية الصالحة ، ولكنه يحتاج إلى مضمون وإلى محتوى ، المحتوى والمضمون هو الذي فات الانسان الاوروبي ، الانسان الاوروبي جعل الحرية هدفا وهذا صحيح ، ولكنه صيّر من هذا الهدف مثلا أعلى ، بينما هذا الهدف

ليس الا اطاراً ، واذا جرد هذا الاطار عن محتواه ، فوسف يؤدي إلى الويل والدمار ، إلى الويل الذي تواجهه الحضارة الغربية اليوم التي صنعت للبشرية كل وسائل الدمار .

التعميم الزمني الخاطيء :

واما التعميم الزمني ايضا ، كذلك على مر التاريخ توجد خطوات ناجحة تاريخيا ، ولكنها لا يجوز ان تحوَّل من حدودها كخطوة إلى مطلق ، إلى مثل أعلى ، يجب ان تكون ممارسة تلك الخطوة ضمن المثل الأعلى ، لا ان تحول هذه الخطوة إلى مثل أعلى .

حينما اجتمع في التاريخ مجموعة من الاسر فشكلوا القبيلة ، حينما اجتمعت مجموعة من القبائل فشكلت عشيرة ، حينما اجتمعت مجموعة من العشائر فشكلت أمة ، هذه الخطوات صحيحة في تقدم البشرية وتوحيدها ، ولكن كل خطوة من هذه لا يجوز ان تتحول إلى مثل أعلى ، لا يجوز أن تتحول إلى مطلق ، لا يجوز ان تكون العشيرة هي المطلق الذي يُحارب من أجله هذا الانسان ، وإنما المطلق الذي يحارب من أجله الانسان يبقى هو ذاك المطلق الحقيقي ، يبقى هو الله سبحانه وتعالى ، الخطوة تبقى كأسلوب ، ولكن المطلق يبقى هو الله ، هذا التعميم الزمني أيضاً هو شكل من التعميم الخاطيء ، حينما يحول هذا المثل المنتزع من خطوة محدودة عبر الزمن إلى مثل أعلى .

وحال هذا الانسان الذي يحول هذه الرؤية المحدودة من عمر الزمن إلى مطلق ، حال الانسان الذي يتطلع إلى الافق فلا تساعده عينه إلاّ على النظر إلى مسافة محدودة ، فيخيل له بأن الدنيا تنتهي عند الافق الذي يراه . الا ان هذا في الحقيقة ناشيء من عجز عينه عن ان يتابع المسافة الارضية الطويلة الامد .

كذلك هنا ، هذا الانسان الذي يقف على طريق التاريخ الطويل ، على طريق المسيرة البشرية ، بحكم محدودية الذهن البشري ، له افق كذلك الافق

الجغرافي ، ولكن هذا الافق يجب ان يتعامل معه كافق ، لا كمطلق ، كما اننا نحن على الصعيد الجغرافي لا نتعامل مع هذا الافق الذي نراه على بعد عشرين متراً أومائتي متر انه نهاية الارض ، وإنما نتعامل معه على أنه أفق ، كذلك ايضا هنا ، يجب ان يتعامل هذا الانسان معه كافق فلا يحول هذا الافق التاريخي إلى مثل أعلى ، والا كان من قبيل من يسير نحو سراب .

انظروا إلى التمثيل الرائع في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى اذا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَالله سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[1] .

ويعبّر القرآن عن كل هذه المثل المصطنعة من دون الله ، بانها كبيت العنكبوت ، يقول سبحانه وتعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ الله أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَانَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَو كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[2]

اذا قارنّا بين هذين النوعين من المثل العليا : المثل العليا من الواقع ، والمثل العليا المشتقة من طموح محدود ، يمكننا ان نلاحظ ان المثل العليا المشتقة من الواقع ، كثيرا ما تكون قد مرت بمرحلة هذه المثل العليا التي تعبر عن طموح محدود ، يعني كثيرا ما تكون تلك المثل من النوع الاول امتدادا للمثل من النوع الثاني ، بأن يبدأ هذا المثل الأعلى مشتقا من طموح ، لكن حينما يتحقق هذا الطموح المحدود ، وتصل البشرية إلى النقطة التي أشارت هذا المثل ، يتحول هذا المثل إلى واقع محدود بحسب الخارج ، حينئذ يصبح مثلا تكراريا .

من هنا قلنا في ما سبق ، إننا لو رجعنا خطوة إلى الوراء بالنسبة إلى

---

(١) سورة النور الآية / ٣٩ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية / ٤١ .

آلهة النوع الاول ومُثُله ، لوجدنا آلهة النوع الثاني ، فالمسألة في كثير من الأحيان تبدأ هكذا ، تبدأ بمثل أعلى له طموح مشتق من طموح مستقبلي، ثم يتحول هذا المثل الأعلى إلى مثل تكراري ، ثم يتمزق هذا المثل التكراري كما قلنا وتتحول الأمة إلى شبح أمة .

المراحل الاربعة

في هذه الفترة الزمنية ، تمر الامة بمراحل في الحقيقة ، يمكننا تلخيصها في أربعة مراحل :

المرحلة الأولى : فاعلية وتجديد :

هي مرحلة فاعلية هذا المثل بحكم انه قد بدأ مشتقا من طموح مستقبلي ومن نظرة مستقبلية ، فهذا المثل يكون له في المرحلة الاولى فاعلية وعطاء وتجديد ، بقدر ما يكون له من ارتباط بالمستقبل .

ولكن طبعا هذه الفاعلية وهذا العطاء وهذا التجديد ، هو عطاء يسميه القرآن بالعاجل ، مكاسب عاجلة ، وليست مكاسب على الخط الطويل . لان عمر هذا المثل قصير ، ولأن عطاءه محدود، ولأنه سوف يتحول في لحظة من اللحظات إلى قوة ابادة لكل ما اعطاه من مكاسب .

انظروا إلى قوله تعالى :

﴿ مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً . وَمَنْ أَرادَ الآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً كُلّاً نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾[1] .

الله سبحانه وتعالى خير محض ، عطاء محض جود كله ، فبقدر ما

---

(١) سورة الإسراء الآية / ١٨ ـ ٢٠ .

تتبنى الامة مثلا قابلا للتحريك ، بعد أن تشارك قادتها في صنعه وتحريكه ، فالله سبحانه ايضا يعطي ، لكنه يعطي بقدر قابلية هذا المثل ، يعطي شيئا عاجلا ، ومكاسب عاجلة تعقبها جهنم في الدنيا والآخرة .

المرحلة الثانية : كِبْر وانقياد :

حينما يتجمد هذا المثل الأعلى ، يستنفذ طاقته وقدرته على العطاء ، حينئذ يتحول إلى تمثال ولا يبقى مثلاً .

والقادة الذين كانوا يعطون ويوجهون على أساسه يتحولون إلى سادة وكبراء ، لا إلى قادة ، وجمهور الامة يتحول إلى مطيعين ومنقادين ، لا إلى مشاركين في الابداع والتطوير ، وهذه المرحلة هي المرحلة التي عبر عنها القرآن الكريم بقوله :

﴿ وَقَالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونا السَّبِيلا ﴾[1] .

المرحلة الثالثة : امتداد واستيعاب :

ونعني بذلك أن هذه السلطة الحاكمة سوف تتحول إلى طبقة تتوارث مقاعدها عائليا أو طبقيا بشكل من اشكال الوراثة ، وحينئذ تصبح هذه الطبقة هي الطبقة المترفة المنعمة الخالية من الاغراض الكبيرة ، المشغولة بهمومها الصغيرة . وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله :

﴿ وَكَذٰلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلىٰ آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾[2] . هؤلاء نتاج لآباء ، لهم تاريخ وهم امتداد واستمرار لذاك التاريخ .

المرحلة الرابعة : تسلّط وإجرام :

ثم حينما تتفتت الامة وتتمزق ، وتفقد ولاءها لذلك المثل التكراري

---

(١) سورة الأحزاب الآية / ٦٧ .　　(٢) سورة الزخرف الآية / ٢٣ .

على ضوء ما قلناه ، تدخل في مرحلة رابعة وهي اخطر مراحلها ، حيث يسيطر عليها مجرموها ، يسيطر عليها اناس لا يرعون عهداً ولا ذمة . وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم في قوله سبحانه :

﴿ وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[1] .

يسيطر هتلر والنازية مثلاً في جزء من أوروبا لكي يحطم كل ما في أوروبا من خير وابداع ، لكي يقضي على كل مكاسب ذلك المثل الأعلى الذي رفعه الانسان الاوروبي الحديث ، والذي تحوَّل بالتدريج إلى مثل تكراري .

القسم الثالث : من المُثُل العليا ، هو المثل الأعلى الحقيقي .

وهو الله سبحانه وتعالى . ولا بد من التنبيه هنا ، على أن التناقض الذي كنا نواجهه في القسمين السابقين من المثل العليا ، وهو ذلك التناقض القائم بين الوجود الذهني المحدود للانسان ولا محدودية المثل الأعلى ، إن هذا التناقض يرتفع في هذا القسم الثالث ، وهو المثل الأعلى الحقيقي ، ليحل محله التنسيق التام بين المحدود واللا محدود . لماذا ؟ لان هذا المثل الأعلى ليس من نتاج الانسان ، ولا افرازاً ذهنيا له ، بل هو مثل أعلى له واقع عيني ، هو موجود مطلق في الخارج ، له قدرته المطلقة وله علمه المطلق وله عدله المطلق . هذا الموجود العيني يكون مثلا أعلى لانه مطلق ، لكن الانسان حينما يريد ان يستلهم من هذا النور ، فهو لا يمسك الا بحزمة منه ، الا انه يميز بين ما يمسك به وبين مثله الأعلى ، فما هو خارج حدود ذهنه هو المطلق ، والمقيد ما هو وجود ذهني لديه .

ومن هنا حرص الاسلام على التمييز دائما بين الوجود الذهني وما بين

---

(١) سورة الأنعام الآية / ١٢٣ .

الله سبحانه وتعالى الذي هو المثل الأعلى . فرّق حتى بين الاسم والمسمى ، وأكد على انه لا يجوز عبادة الاسم ، وانما العبادة تكون للمسمى لأنه هو المطلق ، ولأن الاسم ليس الا واجهة ذهنية لله سبحانه ، والواجهات الذهنية دائما محدودة ومرحلية . قال الله سبحانه وتعالى

﴿ يا أيُّها الإنْسانُ إنَّكَ كادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ ﴾ [1].

فإن هذه الآية الكريمة تضع الله سبحانه هدفاً أعلى للإنسانية ككل ، وكدح الانسانية ككل ، نحو الله سبحانه ، يعني السير المستمر بالمعاناة والمجاهدة ، لان هذا السير ليس سيراً اعتياديا ، بل هو سير إرتقائي ، هو تصاعد وتكامل ،

وهذا السير الذي يستبطن المعاناة باستمرار ، يفترض حتماً طريقاً ممتدا بين السائر وبين ذلك الهدف ، وهذا الطريق هو الذي تحدثت عنه الآيات الكريمة في المواضع المتفرقة تحت اسم سبيل الله ، واسم الصراط ، واسم صراط الله ، وهذه الآية الكريمة :

﴿ يا أيُّهَا الإنْسانُ إنَّكَ كادِحٌ إلىٰ رَبِّك كَدْحاً فَمُلاقيه ﴾ .

تتحدث عن حقيقة قائمة ، عن واقع موضوعي ثابت ، فهي ليست بصدد ان تدعو الناس إلى أن يسيروا في طريق الله سبحانه وتعالى ، ليست بصدد الطلب والتحريك كما هو الحال في مقامات وسياقات قرآنية أخرى .

لغة الآية هي أن كل سير وكل تقدم للانسان في مسيرته التاريخية الطويلة الأمد ، هو تقدم وسير نحو الله سبحانه ، حتى تلك الجماعات التي يسميها القرآن بالمشركين ، التي تمسكت بالمثل المنخفضة وبالآلهة المصطنعة ، واستطاعت ان تحقق لها خطوة على هذا الطريق الطويل ، يسيرون هذه الخطوة نحو الله ، هذا التقدم بقدر فاعليته وزخمه ، هو اقتراب نحو الله ،

---

(1) سورة الانشقاق : الآية / ٦ .

لكن فرق بين تقدم مسؤول وتقدم غير مسؤول (علىَ ما يأتي شرحه ان شاء الله) ، حينما تتقدم الانسانية في هذا المسار واعية على المثل الأعلى وعياً موضوعيا ، يكون التقدم تقدماً مسؤولاً ، يكون عبادة بحسب لغة الفقه ، يكون لهم امتداد على الخط الطويل وانسجام مع الوضع العريض للكون ، وأما حينما يكون التقدم منفصلاً عن الوعي على ذلك المثل ، فهو سير نحو الله على أي حال ، ولكنه تقدم غير مسؤول على ما يأتي تفصيله .

اذن كل تقدم هو تقدم نحو الله ، حتى اولئك الذين ركضوا وراء سراب ، هؤلاء حينما يصلون إلى هذا السراب لا يجدون شيئا ، ويجدون الله سبحانه فيوفيهم حسابهم .

فالله سبحانه وتعالى هو نهاية هذا الطريق ، ولكنه ليس نهاية جغرافية .

كربلاء مثلا نهاية طريق ممتد بين النجف وكربلاء ، فهي نهاية جغرافية ، ومعنى انها نهاية جغرافية انها موجودة على آخر الطريق . وليست موجودة على طول الطريق ، فلو أن انسانا سار نحو كربلاء ووقف في نصف الطريق لا يحصل على شيء من كربلاء ، ولكن الله سبحانه ليس نهاية على نمط النهايات الجغرافية ، الله سبحانه هو المطلق ، الحقيقي العيني ، وبحكم كونه هو المطلق ، اذن هو موجود على طول الطريق أيضا ، ليس هناك فراغ منه ، وليس هناك انحسار عنه ، وليس هناك حد له ، ولذا فإن من وصل إلى سرابه ، فتوقف واكتشف انه سراب ، ماذا يجد ؟ وجد الله فوَفّاه حسابه ، لان المطلق موجود على طول الطريق ، وبقدر التقدم في الطريق يجد الانسان مثله الأعلى ، يلقى الله سبحانه .

وبحكم أن الله سبحانه هو المطلق ، اذن الطريق ايضا لا ينتهي ، واقتراب الانسان على هذا الطريق نحو الله هو اقتراب مستمر ولكنه يبقى اقترابا نسبيا ، لان المحدود لا يصل إلى المطلق ، والمتناهي لا يمكن ان يصل إلى اللا متناهي ، فالفسحة الممتدة بين الانسان وبين المثل الأعلى هنا ، فسحة لا

متناهية ، أي انه ترك له مجال الابداع والتطور التكاملي إلى اللانهاية ، وهذا المثل الأعلى الحقيقي حينما تتبناه المسيرة الانسانية ، وتوفق بين وعيها البشري والواقع الكوني الذي يفترض هذا المثل الأعلى حقيقة قائمة كما افترضته الآية ، فسوف يحدث تغيير كمي وكيفي على هذه المسيرة وتلك الحركة .

أما التغيير الكمي : فباعتبار ما أشرنا اليه ، من أن الطريق حينما يكون طريقاً إلى المثل الأعلى الحق ، يكون طريقا غير متناهٍ ، أي أن مجال التطور والأبداع والنمو قائم أبداً ودائما ، ومفتوح للانسان باستمرار من دون توقف ، هذا المثل الأعلى حينما يُتَبَنّى ، سوف تمسح من الطريق كل الآلهة المزورة ، وكل الاصنام والاقزام التي تقف عقبة بين الانسان وبين وصوله إلى الله سبحانه .

ومن هنا كان دين التوحيد صراعا مستمرا مع مختلف اشكال الآلهة والمثل المنخفضة والتكرارية ، التي حاولت ان تَحدَّ من كمية الحركة البشرية ، وتكبّل الانسان بقيودها لتمنعه من ان يسمو ويحلّق ، وتمرّغ وجهه بالوحل والتراب وتغله بأغلال العبيد .

وأما التغيير الكيفي : الذي يسبغه المثل الأعلى على هذه المسيرة فهو عبارة عن اعطاء الحل الموضوعي الوحيد للتناقض الانساني بين قبضة التراب التي تتمثل في الجسد وما يحويه من غرائز وشهوات هابطة تجذبه إلى اسفل باستمرار والنفخة الآلهية التي تتمثل في الروح وما تستبطنه من نزوع إلى السمو والتحليق نحو مصدرهاوهو الله المثل الأعلى المطلق . وذلك بإعطاء الانسان الشعور المعمق لديه بالمسؤولية تجاه هذا المثل الأعلى ، ولأول مرة في تاريخ المثل المنخفضة التي حركت البشر على مر التاريخ

لماذا ؟

لان هذا المثل الأعلى حقيقة وواقع عيني منفصل عن الانسان ، وبهذا

يعطي للمسؤولية شرطها المنطقي . فان المسؤولية الحقيقية لا تقوم الا بين جهتين : مسؤول ، ومسؤول لديه . اذا لم يكن هناك جهة أعلى من هذا الكائن المسؤول ، واذا لم يكن هذا الكائن المسؤول مؤمنا بأنه بين يدي جهة أعلى ، لا يمكن ان يكون شعوره بالمسؤولية شعوراً موضوعياً وحقيقياً .

مثلاً تلك المثل المنخفضة على مرّ التاريخ ، في الحقيقة لم تكن كما رأينا الاّ افرازاً بشريا ، وجزءاً من كيان الانسان ، والانسان لا يمكن ان يستشعر بصورة موضوعية حقيقية ،المسؤولية اتجاه ما يصنعه هو : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوها ﴾ [1] نعم قد تصنع تلك المثل قوانين ، وعادات ، وأخلاقاً ، ولكنها كلها غطاء ظاهري ، وكلما وجد هذا الانسان مجالاً للتحلل منها فسوف يتحلل .

بينما المثل الأعلى لدين التوحيد ، باعتباره واقعاً عينياً منفصلاً عن الانسان وليس نتاجاً انسانياً ، اذن سوف يتوصل للشعور بالمسؤولية ، ومن هنا ندرك لماذا كان الأنبياء على مر التاريخ أصلب الثوار على الساحة التاريخية وأنطفهم ، لماذا كانوا على الساحة التاريخية فوق كل مساومة ، كل مهادنة ، وكل تردد في حربهم ضد كل المثل المنخفضة والأصنام المصطنعة ومن يتمحورون حولها حفاظاً على مصالحهم وترفهم وإرضاءًا لأنانياتهم الضيقة . لماذا كانوا هكذا ؟

لأن المثل الأعلى المنفصل عن أي نبي ، هو الذي أعطاه نفحة موضوعية من الشعور بالمسؤولية ، وهذا الشعور بالمسؤولية تجسد في كل كيانه ، ومشاعره وأفكاره وعواطفه ، فكان حقيقةً ، الشرط الجوهري لإنجاح تلك المسيرة ، ودفعها نحو هدفها المنشود .

ومن هنا كان النبي معصوماً على مر التاريخ

(١) سورة النجم الآية / ٢٣ .

ومن هنا أبرز القرآن الكريم سنة من سنن التاريخ ، وهي أن الأنبياء دائماً كانوا يواجهون المترفين من مجتمعاتهم كقطب آخر في المعارضة مع هذا النبي ، لأن هؤلاء المستفيدين من هذا المثال بعد أن تحول إلى التمثال ، سوف يجعلون من هذا التمثال مبرراً لوجودهم ، ولذا كان من الطبيعي أن نجد المترفين المستفيدين دائماً ، في الخط المعارض للأنبياء ،

﴿ وَكَذٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلىٰ أُمَّةٍ وَإنَّا عَلىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾(١) .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾(٢) ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا ، وَإنْ يَرَوا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، وَإنْ يَرَواسبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوه سَبِيلاً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾(٣) . ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هٰذَا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾(٤) .

اذن ، دين التوحيد هو الذي يستأصل مصالح هؤلاء المترفين بالقضاء على آلهتهم ، وعلى مثلهم التي تحولت إلى تماثيل ، ويقطع صلة البشرية بهذه المثل العليا المنخفضة ، ولكن لا لِيَسطَأ برأسها في التراب ، ويحولها إلى كومة مادية ليس لها اشواق ، وليس لها طموحات إلى أعلى كما هو شأن الثوار الماديين ، الذين يستلهمون من المادية التاريخية ومن الفهم المادي للتاريخ ، ايضاً يحاربون هذه الآلهة المصطنعة ويسمون الدين افيون الشعوب

---

(١) سورة الزخرف : الآية / ٢٣ .

(٢) سورة سبأ : الآية / ٣٤ .

(٣) سورة الأعراف : الآية / ١٤٦ .

(٤) سورة المؤمنون : الآية / ٣٣ .

فيحولون الانسان إلى حيوان يتمرغ في عالم الضرورات ، بينما نحن نقطع صلة الانسان بهذه المثل المنخفضة ، لكي نشده إلى المثل الأعلى ، إلى الله سبحانه .

شروط وركائز اساسية

وتبني المسيرة البشرية لهذا المثل الأعلى الحق ، الذي يحدث هذه التغييرات الكيفية والكمية على اتجاه تلك المسيرة وحجمها ، يتوقف على عدة أمور :

أولاً ـ على رؤية واضحة فكريا وايديولوجيا لهذا المثل الأعلى ، وهذه الرؤية الواضحة لهذا المثل الاعلى هي التي تقدمها عقيدة التوحيد على مرّ التاريخ ، عقيدة التوحيد التي تنطوي على الايمان بالله سبحانه وتعالى ، التي توحد بين كل المثل والطموحات ، وكل التطلعات البشرية ، في هذا المثل الأعلى ، الذي هو علم كله ، قدرة كله ، عدل كله ، رحمة كله ، انتقام من الجبارين . هذا المثل الأعلى الذي تتوحد فيه كل الطموحات وكل الغايات ، تعطينا عقيدة التوحيد رؤية واضحة له ، تعلمنا على ان نتعامل مع صفات الله واخلاق الله ، لا بوصفها حقائق عينية منفصلة عنا كما يتعامل فلاسفة الاغريق ، وانما نتعامل مع هذه الصفات والاخلاق بوصفها رائدا عمليا ، بوصفها هدفا لمسيرتنا العملية ، بوصفها مؤشرات على الطريق الطويل للانسان في كدحه نحو الله سبحانه .

ثانياً ـ لا بد من طاقة روحية مستمدة من هذا المثل الأعلى ، لكي تكون هذه الطاقة الروحية رصيداً ووقوداً مستمرا للارادة البشرية على مرّ التاريخ ، هذا الوقود الروحي يتمثل في عقيدة يوم القيامة ، في عقيدة الحشر والامتداد ، فهذه العقيدة تعلم الانسان ان هذه الساحة التاريخية الصغيرة التي يلعب عليها ، مرتبطة ارتباطا مصيرياً بساحات برزخية وبساحات حشرية في عالم البرزخ والحشر ، وان مصير الانسان على تلك الساحات العظيمة الهائلة ،

مـرتبط بدوره على هـذه الساحـة التاريخيـة . هذه العقيـدة تعطي تلك الـطاقة الروحية ، ذلك الوقـود الربـاني الذي ينعش ارادة الانسـان ، ويحفظ له دائمـا قدرته على التجديد والاستمرار .

ثالثاً ـ ان هذا المثل الأعلى الذي تحدثنا عنه ، يختلف عن المثل العليا الأخرى التكرارية والمنخفضة التي تحدثنا عنهـا سابقـا ، على اساس ان هـذا المثـل منفصل عن الانسـان ، ليس جزءا من الانسـان ولا إفرازاً لـه ، بل هـو واقع عيني قائم في كل مكان ، وهذا الانفصال ، يفرض وجود صلة موضوعيـة بين الانسـان وهذا المثـل الأعلى . بينما المثـل الأخرى السـابقة ، لمـا كانت افـرازاً بشريـاً ، فـلا حـاجـة إلى افـتراض صلة مـوضـوعيـة ، نعم هنـاك طـواغيت وفراعنة على مـر التاريـخ ، نصبوا من انفسهم صـلات موضـوعية بين البشـرية وبين آلهـة الشمس ، وآلهة الكـواكب ، ولكنها صلة مـوضوعيـة مزيفـة ، لان الإله هناك كان وهما ، كان وجودا ذهنيا وافرازا انسانيا ، اما هنا فالمثل الأعلى منفصل عن الانسان ، ولهذا كان لا بد من صلة موضـوعية تـربط هذا الانسـان بذلك المثل الأعلى .

وهـذه الصلة الموضـوعية تتجسـد في النبي ، فالنبي هـو ذلـك الانسـان الذي يركّب بين الشـرط الاول والشرط الثـاني بأمـر الله سبحانـه وتعالى ، بين رؤية ايديولوجية واضحة للمثل الأعلى ، وطاقة روحية مستمدة من الايمان بيوم القيـامة ، يـركّب بين هذين العنصـرين ، ثم يجسـد بـدور النبـوة ، الصلة بين المثل الأعلى والبشرية ، ليحمل هذا المركّب إلى البشرية بشيرا ونذيراً .

رابعاً ـ ان البشرية بعد ان تدخل مرحلة يسميها القرآن مرحلة الاختلاف على ما يأتي ان شاء الله شرحـه ـ سوف لن يكفي مجيء البشيـر النذيـر ، لان مـرحلة الاختلاف تعني مـرحلة انتصاب تلك المثـل المنخفضـة أو التكـراريـة المزورة على الـطريق ، تحول دون البشريـة والإرتبـاط بـالله سبحـانـه ، ولـذا كـان لا بد للبشرية من ان تخوض معركة ضد الآلهة المصطنعة ، ضـد تلك الطواغيت

التي تنصب من نفسها قيّما على البشرية ،وقاطع طريق بالنسبة للمسيرة التاريخية ، ولا بد من قيادة تتبنى هذه المعركة ، وهذه القيادة هي الامامة ، فالامام هو القائد الذي يتولى هذه المعركة .

ودور الامامة يندمج مع دور النبوة في مرحلة من النبوة يتحدث عنها القرآن وسوف نتحدث عنها انشاء الله تعالى ، ونقول بانها بدأت في اكبر الظن مع نوح عليه الصلاة والسلام ، ولكنه يمتد حتى بعد النبي ، اذا ترك النبي الساحة ويعدُ لا تزال المعركة قائمة ، ولا تزال الرسالة بحاجة إلى مواصلة هذه المعركة من اجل القضاء على تلك الآلهة .

على هذا الضوء ، سوف نكوّن رؤية واضحة لما نسميه باصول الدين الخمسة ، والتي سوف تقع في موقعها الصحيح السليم من مسار الانسان ، واصول الدين الخمسة هي :

التوحيد : هو الذي يعطي الشرط الأول هو الذي يعطي الرؤية الواضحة فكريا وايديولوجيا ، هو الذي يجمع ويعبيء كل الطموحات والغايات في مثل اعلى واحد وهو الله سبحانه .

العدل : العدل هو جانب من التوحيد ، العدل صفة من صفات الله سبحانه وتعالى ، فحال العدل ، حال العلم ، وحال القدرة ، لا يوجد ميزة عقائدية في العدل في مقابل بقية الصفات ، ولكن الميزة هنا ميزة اجتماعية ، ميزة القدوة ، لان العدل هو الصفة التي تكون المسيرة الاجتماعية بحاجة اليها اكثر من أي صفة اخرى ، ولذا أبرز العدل هنا كأصل ثاني من اصول الدين ، باعتبار المدلول التربوي التوجيهي له بالنسبة للمسيرة البشرية أثناء انطلاقتها نحو الله كمنارة ومؤشر .

النبوة : النبوة هي التي توفر الصلة الموضوعية بين الانسان وما بين المثل الأعلى ، فالمسيرة البشرية كما قلنا ، حينما تبنت المثل الأعلى الحق

المنفصل عنها ،كانت بحاجة إلى صلة موضوعية ،يجسدها النبي(ص)على مر التاريخ .

الامامة : الامامة هي في الحقيقة تلك القيادة التي تندمج مع دور النبوة ، النبي امام ايضا ، ولكن الامامة لا تنتهي بانتهاء النبي ، اذا كانت المعركة قائمة ، واذا ما كانت الرسالة لا تزال بحاجة إلى قائد يواصل المعركة ، اذن سوف يستمر هذا الجانب من دور النبي من خلال الامامة .

الايمان بيوم القيامة : هو الذي يوفر الشرط الثاني من الشروط الاربعة التي تقدمت ، هو الذي يعطي تلك الطاقة الروحية ، وذلك الوقود الرباني الذي يجدد دائما ارادة الانسان وقدرته ، ويوفر له الشعور بالمسؤولية والضمانات الموضوعية .

اذن اصول الدين في الحقيقة ، وبالتعبير التحليلي على ضوء ما ذكرناه ، هي كلها عناصر تساهم في تركيب هذا المثل الاعلى ، وفي اعطاء تلك العلاقة الاجتماعية ، بصيغتها القرآنية الرباعية التي تحدثنا عنها فيما تقدم حيث قلنا بأن القرآن الكريم طرح العلاقة الاجتماعية ذات اربعة ابعاد لا ذات ثلاثة ابعاد ، طرحها بصيغة الاستخلاف ، وشرحنا في ما سبق صيغة الاستخلاف ، وقلنا بأن الاستخلاف يفترض اربعة ابعاد ، يفترض انساناً وإنساناً ، وانساناً وطبيعة ، الله سبحانه وتعالى وهو المستخلف . هذه الصيغة الرباعية للعلاقة الاجتماعية هي التعبير الآخر عن صيغة تندمج اصول الدين الخمسة في مركّب واحد ، من اجل ان يسير الانسان ويكدح في طريقه الطويل نحو الله سبحانه .

وبما ذكرناه توضح دور الانسان في المسيرة التاريخية ، توضح ان الانسان هو مركز الثقل في المسيرة التاريخية ، لا بجسمه الفيزيائي وانما بمحتواه الداخلي ، وهذا المحتوى الداخلي توضح ايضاً من خلال ما شرحناه ، ان الاساس في بنائه هو المثل الأعلى الذي يتبناه الإنسان ، لأن

المثل الأعلى هو الذي تنبثق منه كل الغايات التفصيلية ، والغـايات التفصيليـة هي المحركات التاريخية للنشاطات على الساحة التاريخية .

اذن ، بناء المثل الأعلى وتبنّي المثل الأعلى ، هو في الحقيقة الاساس في بناء المحتوى الداخلي للانسان ، ومن هنا ظهر دور هذا البعد الرابع .



- ٧ -
القرآن
والعلاقة الاجتماعية

تقدم في تحليل عناصر المجتمع ، ان المجتمع يتكون من ثلاثة عناصر ، وهي : الانسان والطبيعة والعلاقة الإجتماعية ، وقد تحدثنا عن الإنسان ودوره الاساسي في الحلقة التاريخية . وتحدثنا عن الطبيعة وشأنها على الساحة التاريخية . ويبقى علينا ان نأخذ العنصر الثالث وهو : العلاقة الاجتماعية لنحدد موقفنا من هذه العلاقة على ضوء ما انتهينا اليه من مواقف قرآنية تجاه دور الإنسان والطبيعة على الساحة التاريخية .

وقد تقدم ان العلاقة الاجتماعية تتضمن علاقتين مزدوجتين :

إحداهما : علاقة الانسان مع الطبيعة .

والأخرى : علاقة الانسان مع اخيه الانسان .

هذان خطّان من العلاقة الاجتماعية ، وهذان الخطان نؤمن بان كل واحد منهما مختلف ومستقل استقلالا نسبيا عن الآخر ، مع شيء من التفاعل والتأثير المتبادل المحدود الذي سوف نشرحه بعد ذلك ان شاء الله ، من حيث الاساس ، تبعاً للإختلاف النوعي في طبيعة المشكلة التي يواجهها كل واحد من هذين الخطين ، ونوع الحل الذي ينسجم مع طبيعة تلك المشكلة .

علاقة الانتاج

فالخط الاول يمثل علاقات الانسان مع الطبيعة ، من خلال استثمارها وتطويعها ، وانتاج حاجاته الحياتية منها . هذا الخط يواجه مشكلة التناقض بين

الانسان والطبيعـة ، وهذا التنـاقض يعني تمرد الـطبيعة عن الاستجـابة للحـاجة الإنسانية من خلال التفاعـل بينهما ، وهـذا التناقض لـه حل مستمـد من قانـون موضوعي يمثل سنة من سنن التاريخ الثابتة ، هو قانون التأثير المتبادل بـين الخبرة والممارسة ، ذلك لان الانسان كلما تضاءل جهله بالطبيعة ، وكلما ازدادت خـبرته بلغتها وبقوانينها ، ازداد سيطرة عليها ، وتمكّنا من تطويعها وتذليلها لحـاجاتـه .

وحيث ان كل خبرة تتولد في هذا الحقل عـادة من الممارسـة ، وكل ممارسة تـولّد بـدورها خـبرة ، ولهذا كـان قانـون التأثـير المتبادل بـين الخبرة والممـارسة قـانـونـا موضوعيـا يكفل حـل هذا التنـاقض بشكل مستمـر ، اذ يتضاءل جهـل الانسان باستمرار ، وتنمو معرفتـه باستمـرار من خلال ممـارسته للطبيعـة ، يكتسب خبرة جـديدة ، هـذه الخبرة الجـديدة تعـطيه سيـطرة عـلى ميـدان جـديـد من ميـادين الطبيعة ، فيمارس على الميدان الجديد ، وهذه المـمارسة بـدورها ايضـا تتحول إلى خبرة ، وهكذا تنمو الخبرة الانسانية باستمرار ، ما لم تقع كـارثة كـبرى طبيعية أو بشرية .

وهذا القانون بنموه وبتـطبيقاتـه التاريخيـة ، يعطي الحلول التـدريجية لهـذه المشكلة ، فهي مشكلة محلولة تاريخيا ومحلولة موضوعيا . ولعل في الآية الكريمة :

﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوه ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها ﴾[1] .

اشارة إلى هذا الحل الموضوعي المستمد من قانون التأثير المتبادل بين الخـبرة والممارسة ، لان السؤال في الآية الكريمة ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوه ﴾ لا يـراد منه السؤال اللفظي الـذي هو الـدعاء ، لأن الآيـة تتكلم عن الانسانيـة ككل ، عمّن يؤمن بـالله ومن لا يؤمن بالله ، من يـدعو الله ومن لا يـدعو الله ، كـما ان

(١) سورة ابراهيم الآية / ٣٤

الـدعاء لا يتضمن حتـما تحصيل الشيء المـدعو بـه ، نعم كل دعـاء له استجـابة ، لكن ليس لكل دعاء تحقيق لما تعلق به ، بينما هنا يقول ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوه ﴾ فهذه استجابة فعلية بعطاء ما سئل عنه ، فأكبر الظن أن هذا السؤال من الانسانية ككل ، وعلى مرّ التاريخ ، وعبر المـاضي والحاضر والمستقبـل ، يتمثل في السؤال الفعلي والطلب التكويني ، الذي يحقق باستمرار التطبيقات التاريخية لقانون التأثير المتبادل بين الخبرة والممارسة .

هذه هي المشكلة التي يواجهها الخط الاول من العلاقات ، وهذا هو الحل الذي يوضع لهذه المشكلة .

علاقة التوزيع وغيره

واما الخط الثاني من العـلاقات ، عـلاقات الانسـان مع اخيـه الانسان في مجـال توزيـع الثروة ، أو في سـائر الحقـول الاجتـماعيـة ، أو في أوجـه التفـاعـل الحضـاري بين الانسـان واخيه الانسـان ، فهذا الخط يـواجـه مشكلة اخـرى ، ليست المشكلة هنـا هي التنـاقض بـين الانسـان والـطبيعـة ، بـل هي التنـاقض الاجتماعي بين الانسان واخيه الانسان .

وهذا التناقض الاجتماعي بين الانسان واخيه الانسان ، يتخذ على السـاحة الاجتماعية صيغاً متعددة والواناً مختلفة ، ولكنه يظل في حقيقته وجوهره أمراً ثابتـاً واحداً وروحاً عامة هي التناقض ما بـين القوي والضعيف ، بـين كائن في مـركز القوة وكائن في مركز الضعف ، وهذا الكائن الذي في مركز القوة اذا لم يكن قـد حل تناقضه الخاص ، جدله الانساني من الداخل فسوف يفرز لا محالة صيغة من صيغ التناقض الاجتـماعي . ومهما اختلفت الصيغـة في مضمونها القـانوني ، وفي شكلها التشريعي ، وفي لونها الحضاري ، فهي بالآخرة صيغة من صيغ التناقض بين القوي والضعيف ، قد يكون هذا القوي فرداً فرعونا ، وقد يكون عصابة ، وقد يكون طبقـة ، وقد يكـون شعباً ، وقـد يكون امـة ، وكل هـذه الألوان من

التناقض تحتوي روحاً واحدة هي روح الصراع ، بين القوي المستغِل وبين الضعيف المستغل .

هذه اشكال متعددة من التناقض الاجتماعي الذي يواجهه خط العلاقات بين الانسان واخيه الانسان . وهذه الاشكال المتعددة ذات الروح الواحدة ، كلها تنبع من معين واحد ، ومن تناقض رئيسي واحد ، هو ذلك الجدل الانساني القائم بين حفنة التراب التي تشد الانسان إلى السفح ، وبين اشواق الروح التي تحلّق به نحو القمة ، حيث المثل الاعلى الحقيقي ، نحو الله .

وما لم ينتصر أفضل النقيضين في ذلك الجدل الانساني ، فسوف يظل هذا الانسان يفرز التناقض تلو التناقض ، والصيغة بعد الصيغة ، حسب الشروط الموضوعية ومستوى الفكر والثقافة .

اذن النظرة الاسلامية من زاوية المشكلة التي يواجهها خط العلاقات بين الانسان واخيه الانسان ، نظرة واسعة ، منفتحة ، معمقة ، تستوعب كل أشكال التناقض على مرّ التاريخ ، وتنفذ إلى عمقها ، وتكشف حقيقتها الواحدة ، وروحها المشتركة ، ثم تربط كل هذه التناقضات ، بالتناقض الاعمق ، بالجدل الانساني .

ومن هنا يؤمن الاسلام بأن الرسالة الوحيدة القادرة على حلّ هذه المشكلة التي يواجهها خط علاقات الانسان مع الانسان ، هي تلك الرسالة التي تعمل على مستويين في وقت واحد ، تعمل من أجل تصفية التناقضات الاجتماعية على الساحة ، لكن في نفس الوقت ، وقبل ذلك وبعد ذلك ، تعمل من أجل تصفية ذلك الجدل في المحتوى الداخلي للانسان ، من اجل تجفيف منبع تلك التناقضات الاجتماعية ، ويؤمن الاسلام بأن ترك ذلك المَعِين من الجدل والتناقض على حاله ، والاشتغال بتصفية التناقضات على الساحة الاجتماعية بصيغها التشريعية فقط ، هو النصف المبتور من العملية ، اذ سرعان ما يفرز

ذلك المعين صيغاً أخرى وفق هذه العملية التي سوف تستأصل بها الصيغ السابقة .

فلا بد للرسالة التي تريد أن تضع الحل الموضوعي للمشكلة ان تعمل على كلا المستويين .

أن تؤمن بجهادين : جهاد سمّاه الاسلام « بالجهاد الاكبر » وهو الجهاد لتصفية ذلك التناقض الرئيسي ، لحل ذلك الجدل الداخلي . وجهاد آخر ، في وجه كل صيغ التناقض الاجتماعي ، وكل الوان استثمار القوي للضعيف ، من دون ان نحصر أنفسنا في نطاق صيغة معينة من صيغ هذا الاستثمار ، لان الاستثمار جوهره واحد مهما اختلفت صيغه .

هذه هي النظرة المنفتحة الواقعية التي اثبتت التجربة البشرية باستمرار ، انطباقها على واقع الحياة ، خلافاً للنظرة الضيقة التي فسرت المادية بها التناقض . فان ماركس ، على الرغم من ذكائه الفائق لم يستطع ان يتجاوز حدود النظرة التقليدية للإنسان الاوروبي ، فالانسان الاوروبي دائماً يرى العالم ينتهي حيث تنتهي الساحة الاوروبية أو الساحة الغربية بتعبير أعم ، كما يعتقد اليهود بأن الانسانية هي كلها في اطارهم : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـنَ سَبِيلٌ ﴾[1] أولئك ليسوا بشراً ، ليسوا أناساً ، أولئك أميون ، وهمج ، كذلك الانسان الاوروبي ، اعتاد أن يضع الدنيا كلها في اطار ساحته الاوروبية ، لم يتخلص هذا الرجل من تقاليد هذه النظرة الاوروبية ، كما انه لم يتخلص من هيمنة العامل الطبقي الذي لعب دوراً في افكار المادية التاريخية .

ومن هنا جاء لنا بتفسير محدود ضيق للتناقض الذي تواجهه الانسانية على هذا الخط ، حيث إعتقد بأن مرد كل التناقضات على الساحة البشرية إلى تناقض واحد ، هو التناقض الطبقي ، التناقض بين طبقة تملك كل وسائل الانتاج أو معظم وسائل الانتاج ، وطبقة لا تملك شيئا من وسائل الانتاج وانما تعمل من أجل مصالح الطبقة الاولى .

---

(١) سورة آل عمران الآية / ٧٥

ثم هـذه الثروة المنتجـة التي جسدت عـرق جبـين هـذا العامل المستغل ، تستـولي عليها الـطبقة الاولى المـالكة ، ولا يعـطى للطبقة الثـانية منهـا الاّ الحـد الادنى ، حدّ الكفاف الـذي يضمن استمرار حيـاة هذه الـطبقة ، لكي تـواصل خدمتها وممارستها ضمن إطار الطبقة الاولى .

هذا هو التناقض الطبقي الذي اتخذه قاعدة وأساسا لكـل ألوان التنـاقض الاخرى ، وهذا التنـاقض يتخذ مـدلولـه الاجتماعي من خـلال صراع مريـر بين الطبقة المـالكة والـطبقة العـاملة ، وهذا الصراع ينمـو ويشتد كلما تـطورت الآلة الصنـاعيـة وتعقـدت ، وذلـك لان الآلــة كلما نمت ، وكلما تـطورت ، أدت إلى تخفيض في مستوى المعيشة ، وهذا التخفيض في مستوى المعيشة ، يعطي فـرصة للطبقـة الرأسـمالية المـالكة في ان تخفض أجـر العامـل ، لانها لا تريـد ان تعطي العامل اكثر مما يديم به حياته ونَفَسَه .

اذن باستمرار تتطور الآلة ، وباستمرار تنخفض كلفة المعيشة ، وباستمرار يخفّض الرأسمالي أجرة العامل هذا من ناحية .

ومن ناحية ثانية ، انّ تطور الآلة وتعقـدها يقتضي امكـانية التعـويض عن العدد الكبير من العمال بالعدد القليل ، لان دقـة الآلة سـوف يعوض عن الجـزء الآخـر من العمال . وهـذا يجعل الـطبقة الـرأسـمالية تـطرد الفـائض من العمـال باستمرار ، وهكذا يشتد الصراع بـين الطبقتـين ويحتدم التنـاقض حتى ينفجر في ثورة ، هذه الثورة تجسدهـا الطبقـة العاملة وتقضي بهـا على التنـاقض الطبقي في المجتمع وتوحده في طبقة واحدة ، وهـذه الطبقـة الواحـدة تمثل حينئـذ كل أفـراد المجتمع . وفي حالة من هذا القبيل ، سوف تستأصل كل ألوان التنـاقض ، لان أساس التناقض هو التناقض الطبقي ، فاذا أزيـل التناقض الـطبقي ، زالت كل التناقضات الاخرى الفرعية والثانويه . حسب زعم المادية الجدلية .

هذا تلخيص سريع جداً لوجهـة نظر هؤلاء الثـوار الماديـين تجاه التنـاقض الذي عالجناه .

الا ان هذه النظرة الضيقة ، لا تنسجم في الحقيقة مع الواقع ، ولا تنطبق على تيار الاحداث في التاريخ .

إذ ليس التناقض الطبقي وليد تطور الآلة ، بل هو من صنع الانسان الاوروبي ، فليست الآلة هي التي صنعت استغلال الرأسمالي للعامل ، وليست الآلة هي التي خلقت النظام الرأسمالي ، وانما الانسان الاوروبي الذي وقعت هذه الآلة بيده ، أفرز نظاماً رأسمالياً يجسد قِيَمه في الحياة وتصوراته لها .

وليس التناقض الطبقي هو الشكل الوحيد من اشكال التناقض ، هناك صيغ كثيرة للتناقض على الساحة الاجتماعية ، وكل هذه الصيغ من التناقض على الساحة الاجتماعية هي وليد تناقض رئيس ، هو الجدل المخبوء في داخل محتوى الانسان ، الذي يفرز دائماً وأبداً صيغاً متعددة من التناقض .

بين النظرية والتطبيق

تعالوا نلاحظ ونقارن بين هذه النظرة الضيقة وبين واقع التجربة البشرية المعاصرة ، لنرى أي النظرتين أكثر انطباقا على العالم الذي نعيشه ، ونرى ماذا كنا نتوقع ؟ وماذا كنا ننتظر ؟ لو كان هذا التفسير للتناقض ، صحيحاً وواقعياً .

كنا ننتظر ونتوقع أن يزداد يوما بعد يوم ، التناقض الطبقي والصراع بين الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة في المجتمعات الاوروبية الصناعية ، التي تطورت فيها الآلة تطوراً كبيراً ، كان من المفروض أن هذه المجتمعات ، كانكلترا ، والولايات الامريكية المتحدة ، وفرنسا ، وألمانيا ، أن يشتد فيها التناقض الطبقي والصراع يوما بعد يوم ، ويتزلزل النظام الرأسمالي المستغِل ويتداعى يوماً بعد يوم ، كنا نترقب ان يزداد البؤس والحرمان في جانب الطبقة العاملة ، ويزداد الثراء على حساب هؤلاء العاملين في طبقة الرأسماليين المستغلين من الامريكان والانجليز والفرنسيين وغيرهم ، كنا نترقب حالة من هذا القبيل ، كنا نترقب أن تتضاعف النقمة ، أن يشتد ايمان العامل الاوروبي والعامل الامريكي بضرورة الثورة ، وبأنها هي الطريق الوحيد لتصفية هذا التناقض

الطبقي ، هذا ما كنا ننتظره لو صحت هذه الافكار عن تفسير التناقض .

لكن ماذا وقع خارجا؟ ما وقع خارجا هو عكس ذلك تماما ، نرى وبكل أسف ، أن النظام الرأسمالي في الدول الرأسمالية المستغِلة يزداد ترسخا ويزداد تمحوراً وعملقة يوماً بعد يوم ، لا تبدو عليه بوادر الانهيار السريع ، تلك التمنيات الطيبة في الثورة السريعة التي تمناها ثوارنا الماديون لانكلترا وللدول الاوروبية بحكم التطور الآلي والصناعي فيها ، تلك التمنيات الطيبة تحولت إلى سراب ، بينما تحققت هذه النبوءات بالنسبة إلى بلاد لم تعش تطوراً آلياً ، بل لم تعش تناقضاً طبقياً بالمعنى الماركسي ، لانها لم تكن قد دخلت الباب العريض الواسع للتطور الصناعي ، من قبيل روسيا القيصرية والصين .

من ناحية أخرى ، هل ازداد العمال بؤساً وفقراً ؟ هل أزدادوا استغلالاً ؟

لا بالعكس ، العمال ازدادوا رخاءاً وسعة ، اصبحوا مدلَّلين من قبل الطبقة الرأسمالية المستغِلة ، العامل الامريكي يحصل على ما لا يطمع به انسان آخر يشتغل بكدّ يمينه ويقطف ثمار عمله في المجتمعات الاشتراكية الاخرى

هل ازدادت النقمة لدى الطبقة العاملة ؟

العكس هو الصحيح ، العمال ، الهيئات التي تمثل العمال في الدول الرأسمالية المستغلة تحولت بالتدريج إلى هيئات ذات طابع شبه ديمقراطي ، تحولت إلى اشخاص لهم حالة الاسترخاء السياسي ، تركوا هموم الثورة ومنطقها ، وأصبحوا يتصافحون يداً بيد مع تلك الأيدي المستغلة ، مع أيدي الطبقة الرأسمالية ، وأصبحوا يرفعون شعار تحقيق حقوق العمال عن طريق النقابات وعن طريق البرلمانات ، وعن طريق الانتخابات .

هذه الحالة هي حالة الاسترخاء السياسي ،

كل هذا وقع في هذه الفترة القصيرة من الزمن التي نحسها ، فكيف وقع هذا ؟

هـل كـان مـاركس سيء الـظن إلى هـذه الـدرجـة بهؤلاء الـرأسـماليـين المجـرمين ، والمستغلين ، بحيث تنبـأ بهذه النبـوءات ثم ضاعت هـذه النبـوءات كلها فلم يتحقق شيء منها ؟

أم هـل أن هؤلاء الرأسـماليـين المستغِلين ، دخـل في أنفسهم الـرعب من الماركسية وافكارها الثورية فحاولوا ان يتنـازلوا عن جـزء من مكاسبهم خـوفاً من أن يثور العامل عليهم ؟

هل هذا صحيح ؟

هل ان المليونير الامريكي يخالج ذهنـه فعلاً أي شبـح من خوف من هـذه الناحية ؟ اشد الناس تفاؤلاً بمصائر الثورة في العالم لا يمكنه ان يفكـر في ان ثورة حقيقية على الظلم في امريكـا يمكن ان تحدث قبـل مئة سنـة من هذا التـاريخ . فكيف يمكن ان نفـترض ان المليونـير الامـريكي ، أصبـح أمـامـه شبـح الخـوف والرعب ، وعلى اساس هذا الشبح تنازل عن جزء من مكاسبه ؟

هـل انه دخلت إلى قلوبهم التقـوى فجأة وإستنـارت قلوبهم بنور الاسـلام الـذي أنار قلوب المسلمـين الأوائل ، الـذين كانـوا لا يعرفـون حدا للمشـاركـة والمواسـاة ، والذين كانوا يشاطرون اخوانهم غنائمهم ، وسرّاءهم وضرّاءهم ؟

هل تحول هؤلاء بين عشية وضحاها إلى مسلمين ؟

لا . . لم يتحقق شيء من ذلـك ، لا كـارل مـاركس كـان سيء الـظن بهؤلاء ، بل كان ظنه منطبقاً على هؤلاء انطباقاً تاماً . ولا أن هؤلاء أرعبهم شبح العامل فتنازلوا من أجل إسكاته ، ولا ان قلوبهم خفقت بالتقوى ، بل لم تعـرف التقـوى ولن تعـرف التقـوى لانها انغمست في لـذّات المـال وفي الشهـوات ، لم يتحقق شيء من ذلك .

اذن ماذا وقع وكيف نفسر هذا الذي وقع ؟

هـذا الذي وقـع في الحقيقة كـان نتيجة تنـاقض آخر عـاش مع التنـاقض

الطبقي منذ البداية ، لكن ماركس والثوار الذين ساروا على هذا الطريق ، لم يستطيعوا أن يكتشفوا ذلك التناقض ، ولهذا حصروا انفسهم في التناقض الطبقي ، في التناقض بين المليونير الامريكي والعامل الامريكي ، بين الغني الانجليزي والعامل الإنجليزي ، ولم يدخلوا في الحساب التناقض الآخر الاكبر الذي أفرزه جدل الانسان الاوروبي ، افرزه تناقض الانسان الاوروبي ، فغطى على هذا التناقض الطبقي ، بل جمّده ، بل أوقفه إلى فترة طويلة من الزمن .

ما هو ذلك التناقض ؟ نحن بنظرتنا المنفتحة يمكننا أن نبصر ذلك التناقض ، لاننا لم نحصر انفسنا في اطار التناقض الطبقي ، بل قلنا إن جدل الانسان دائما يفرز أي شكل من أشكال التناقض الاجتماعي ، ذلك التناقض الآخر ، وجد فيه الرأسمالي المستغِل الاوروبي والامريكي ، أن من طبيعة هذا التناقض ، ان يتحالف مع العامل الذي يستغله لكي يشكل هو والعامل قطباً في هذا التناقض ، لم يعد التناقض تناقضاً بين الغني الاوروبي والعامل الاوروبي ، بل ان هذين الوجودين الطبقيين تحالفا معاً وكوّنا قطباً في تناقض اكبر ، بدأ تاريخيا منذ بدأ ذلك التناقض الذي تحدث عنه ماركس .

لكن ما هو القطب الآخر في هذا التناقض ؟ القطب الآخر في هذا التناقض ، هو أنا وأنت ، هو الشعوب الفقيرة في العالم ، هو شعوب ما يسمى بـ « العالم الثالث » ، هذه الشعوب هي التي تمثل القطب الثاني في هذا التناقض .

ان الانسان الاوروبي بكلا وجوديه الطبقيين ، تحالف وتمحور ، من أجل أن يمارس صراعه واستغلاله لهذه الشعوب الفقيرة ، وقد انعكس هذا التناقض الاكبر اجتماعيا ، من خلال صيغ الاستعمار المختلفة التي زخرت بها الساحة التاريخية ، منذ خرج الانسان الاوروبي والامريكي من دياره ليفتش عن كنوز الارض في مختلف أرجاء العالم ، ولينهب الاموال بلا حساب من مختلف البلاد والشعوب الفقيرة ، هذا التناقض غطى على التناقض الطبقي ، بل جمد التناقض

الطبقي ، لان جدل الانسان من وراء هذا التناقض ، كان أقوى من جدل الانسان من وراء ذلك التناقض ، والثراء الهائل الذي تكدس في أيدي الطبقة الرأسمالية في الدول الرأسمالية ، لم يكن كله ، بل ولا معظمه ، نتاج عرق جبين العامل الاوروبي والامريكي ، وانما كان نتاج غنائم حرب وغارات على هذه البلاد الفقيرة ، قام بها الانسان الأبيض الأوروبي . هذا النعيم الذي تغرق فيه تلك الدول ليس من عرق جبين العامل الاوروبي ، ليس من نتاج التناقض الطبقي بين الرأسمالي والعامل، وانما هذا النعيم هو من نفط آسيا وامريكا اللاتينية ، هو من ألماس تنزانيا ، هو من الحديد والرصاص والنحاس واليورانيوم في مختلف بلاد أفريقيا ، هو من قطن مصر ، هو من تنباك لبنان ، هو من خمر الجزائر ، نعم من خمر الجزائر ، لان الكافر المستعمر الذي استعمر الجزائر ، حوّل أرضها كلها إلى بستان عنب ، لكي يقطف هذا العنب ويحوله إلى خمر ليسكر به العمال ، وليشعر اولئك العمال بالنشوة والخيلاء .

إذن ، التناقض الذي جَمَّدَ ذلك التناقض واوقفه ، هو هذا التناقض الأكبر بين المحور الرأسمالي ككل بكلتا طبقتيه ، وما بين الشعوب الفقيرة في العالم .

من خلال هذا التناقض ، وجد الرأسمالي الاوروبي والامريكي أن من مصلحته أن يقاسم العامل شيئاً من هذه الغنائم التي نهبها من فقراء الارض ومستضعفيها .

ولهذا نرى أن العامل بدأت حياته تختلف عن نبوءات ماركس ، ليس ذلك لاجل كرم طبيعي في الرأسمالي الاوروبي والامريكي ، وليس لتقوى ، وانما هي غنيمة كبيرة ، كان من المفروض أن يعطي جزءاً منها لهذا العامل ، والجزء وحده يكفي لاجل تحقيق هذا الرفاه بالنسبة إلى هذا العامل الاوروبي والامريكي .

اذن ، الحقيقة التي يثبتها التاريخ دائما ، هو ان التناقض لا يمكن حصره في صيغة واحدة ، التناقض له صيغ متعددة ، وذلك لان كل هذه الصيغ ، تنبع

من منبع واحد وهو التناقض الرئيسي ، الجدل الانساني ، والجدل الانساني لا تعوزه صيغة ، اذا حلت صيغة وضع صيغة أخرى مكانها ، ليس من الصحيح ان نطوق كل التناقضات في التناقض الطبقي ، في التناقض بين من يملك ومن لا يملك ، فاذا حللنا هذا التناقض قلنا : بأن التناقضات كلها قد حلت .

عود على بدء

لقد سبق وقلنا : إن خط علاقات الانسان مع الطبيعة مختلف مشكلة وقانونا عن خط علاقات الانسان مع أخيه الانسان ، وذكرنا ان كلاً من هذين الخطين مستقل استقلالا نسبيا عن الخط الآخر ، لكن هذا الاستقلال النسبي ، لا ينفي التفاعل والتأثير المتبادل إلى حد ما بينهما . فلكل منهما لون من التأثير الطردي أو العكسي على الخط الآخر .

وهذا التأثير المتبادل بين الخطين ، يمكن ابرازه ضمن علاقتين قرآنيتين :

العلاقة الاولى : تبرز مدى تأثير خط علاقات الانسان مع الطبيعة على خط علاقات الانسان مع أخيه الانسان .

والعلاقة القرآنية الثانية : تبرز من الجانب الآخر ، مدى تأثير علاقات الانسان مع أخيه الانسان ، على علاقات الانسان مع الطبيعة .

أما العلاقة الاولى التي تبرز تأثير علاقات الانسان مع الطبيعة على الخط الآخر فمؤداها : هو أنه كلما نمت قدرة الانسان على الطبيعة ، واتسعت سيطرته عليها ، وازداد اغتناءاً بكنوزها ، ووسائل انتاجها ، تحققت بذلك امكانية اكبر فاكبر ، للاستغلال على خط علاقات الانسان مع أخيه الانسان :

﴿ كَلَّا إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ، أَن رَّآهُ ٱسْتَغْنَىٰ ﴾[1] .

هذه الآية الكريمة ، تشير إلى هذه العلاقة ، إلى ان الانسانية بقدر ما

(١) سورة العلق الآية / ٦ .

تتمكن وتستقطب الطبيعة ، وتتوصل إلى وسائل انتاج أقوى وأدوات توليد أوسع ، تكون انعكاسات ذلك على حقل علاقات الانسان مع أخيه الانسان أكبر ، في شكل امكانيات واغراءات ، وفتح الشهية للاقوياء لكي يستثمروا أداة الانتاج في سبيل استغلال الضعفاء .

تصوروا مجتمعاً يعيش على الصيد باليد والحجارة والهراوة ، ففي مثل هكذا مجتمع ، لن يتمكن الاقوياء على الاغلب ، من أن يمارسوا أدواراً خطيرة من الاستغلال الاجتماعي ، لان مستوى الانتاج محدود ، والقدرة محدودة ، وكل انسان لا يكسب عادة بعرق جبينه الا قوت يومه ، فلا توجد امكانية الاستغلال بشكله الاجتماعي الواسع ، وان كان من الممكن أن توجد ألوان اخرى من الاستغلال الفردي .

ولكن لاحظوا من الجانب الآخر مجتمعاً متطوراً ، استطاع الانسان فيه أن يصنع الألة البخارية والآلة الكهربائية ، واستطاع فيه أن يخضع الطبيعة لارادته ، في مثل هذا المجتمع ، سوف تكون الآلة البخارية والآلة الكهربائية المعقدة المتطورة الصنع ، أداة امكانية على ساحة علاقات الانسان مع أخيه الانسان ، تشكّل بحسب مصطلح الفلاسفة ، ما بالقوة للاستغلال ، ويبقى ان يخرج ما بالقوة إلى ما بالفعل ، وذلك على عهدة الانسان ودوره التاريخي على الساحة الاجتماعية ، فالانسان هو الذي يصنع الاستغلال ، وهو الذي يفرز النظام الرأسمالي المستغل حينما يجد الآلة البخارية والكهربائية ، ولكن الآلة البخارية والكهربائية هي التي تعطيه امكانية هذا الاستغلال ، وتهيىء له فرصة تفتح شهيته ، توقظ مشاعره ، تحرك جدله وتناقضه الداخلي من اجل أن يبرز صيغة تتناسب مع ما يوجد على الساحة من قوى الانتاج ووسائل التوريد .

وهذا هو الفرق بيننا وبين المادية التاريخية ،فالمادية التاريخية اعتقدت بأن الآلة هي التي تصنع الاستغلال ، وهي التي تصنع النظام المتناسب معها ، ولكننا نحن لا نرى ان دور الآلة هو دور الصانع ، وانما دور الآلة هو دور

الامكـانية ، دور تـوفير الفـرصة والقـابلية ، وأمـا الصانـع الذي يتصرف ايجـاباً وسلباً ، أمانة وخيانة ، صموداً وانهياراً ، انما هو الانسان وفقاً لمحتواه الداخلي ، لمثله الاعلى ،ومدى التحامه مع هذا المثل الاعلى .

وأما العلاقة القرآنية الثانية التي تمثل وتجسد تأثيرعلاقات الانسان مع الطبيعة ، فمؤداهـا : هو أنـه كلما جسـدت عـلاقـات الانسـان مـع أخيـه الانسـان العـدالـة ، وكلما استـطاعت أن تستوعب قيمهـا ، وأن تبتعد عن أي لـون من ألوان الـظلم والاستغـلال من الانسـان لأخيـه الانسـان ، ازدهـرت عـلاقـات الانسـان مـع الطبيعة ، وتفتحت الطبيعة عن كنوزها ، وأعطت المخبوء من ثـرواتها ، ونـزلت البركات من السماء ، وتفجرت الأرض بالنعمة والرخاء .

هـذه العلاقـة ، هي التي شرحها القـرآن الكريم في نصـوص عديـدة قال سبحانه :

﴿ وَأَنْ لَو اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءاً غَدَقاً ﴾[1]

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ اقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾[2] ،

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ ، وَلٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[3]

وهذه العلاقة مؤداها أن علاقات الانسـان مع الطبيعة تتناسب عكسياً مـع ازدهار العدالة في علاقات الانسان مع أخيه الانسان ، فكلما ازدهرت العدالة في عـلاقات الانسان مع أخيـه الانسان أكـثر فأكـثر ازدهرت عـلاقات الانسـان مع الطبيعة ، وكلما انحسرت العـدالة عن الخط الأول ، انحسر الازدهـار عن الخط الثاني ، أي أن مجتمع العدل ، هو الذي يضع الازدهار في علاقات الانسان مـع

(١) سورة الجن الآية / ١٦ .
(٢) سورة المائدة الآية / ٦٦ .
(٣) سورة الأعراف الآية / ٩٦ .

الطبيعة ، ومجتمع الظلم ، هو الذي يؤدي إلى انحسار تلك العلاقات ، علاقات الانسان مع الطبيعة .

وهذه العلاقة ليست ذات محتوى غيبي فقط ، نعم نحن نؤمن أيضاً بمحتواها الغيبي ، ولكن اضافة إلى محتواها الغيبي الرباني ، تشكّل سنة من سنن التاريخ بحسب مفهوم القرآن الكريم ، وذلك لأن مجتمع الظلم ، مجتمع الفراعنة على مرّ التاريخ مجتمع ممزق ، مشتت ، فالفرعونية على مرّ التاريخ ، حينما تتحكم في علاقات الانسان مع أخيه الانسان ، تستهدف تمزيق طاقات المجتمع ، وتشتيت فئاته ، وبعثرة امكانياته ، ومن الواضح أن تشتيتاً وبعثرةً وتفتيتاً وتجزئة من هذا القبيل ، لا يمكن معها لأفراد المجتمع ، أن يحشدوا قواهم الحقيقية والسيطرة على الطبيعة .

وهذا هو الفرق بين المثل العليا المنخفضة الفرعونية ، وبين المثل الأعلى الحق ، مَثَل التوحيد سبحانه ، فان المثل الأعلى يوحد الجامعة البشرية ويلغي كل الفوارق والحدود بإعتبار شمولية هذا المثل الأعلى ، فهو يستوعب كل الحدود وكل الفوارق ، يهضم كل الاختلافات ، ويصهر البشرية كلها في وحدة متكافئة ، لا يوجد ما يميز بعضها عن بعض ، لا من دم ، ولا من جنس، ولا من قومية ، ولا من حدود جغرافية أو طبقية .

انظروا إلى المثل الأعلى الحق كيف يقول :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾[1] ،

﴿ وَأَنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُم فاتَّقُونِ ﴾[2] .

هذا هو منطق شمولية المثل الأعلى التي لا تعترف بحد أو بحاجز في داخل هذه الأسرة البشرية . وفي مقابل ذلك هنالك مجتمع المثل المنخفضة الذي يحكمه

---

(١) سورة الأنبياء الآية / ٩٢ .

(٢) سورة المؤمنون الآية / ٥٢ .

الفراعنة وطواغيت الأرض . تعال لنرى كيف يصورهم القرآن الكريم :
﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾[1] .

الفرعونية على مرّ التاريخ ، تبني العلاقات بين الانسان وأخيه الانسان ، على أساس الظلم والاستغلال ، فالفرعونية تجزيء المجتمع ، وتبعثر امكانياته وطاقاته ، ومن هنا تهدر ما في الانسان من قدرة على الابداع والنمو الطبيعي على ساحة علاقات الانسان مع الطبيعة ، وعملية التجزئة الفرعونية تقسم المجتمع إلى فصائل وجماعات : الجماعة الأولى ظالمون مستضعفون ، وفي نفس الوقت يوجد الظالمون الثانويون ، أو بحسب تعبير أئمتنا عليهم الصلاة والسلام « اعوان الظلمة » ، هؤلاء الظالمون المستضعفون يشكلون حماية لفرعون وللفرعونية وسنداً في المجتمع لبقائها واستمرار وجودها واطارها . قال الله سبحانه وتعالى :
﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾[2]

هنا القرآن يتحدث عن الظالمين يقول :
﴿ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ ﴾ ،

لكن الظالمين صنفهم إلى قسمين : إلى من استضعف منهم ومن استكبر منهم . اذن فالظالمون فيهم مستكبرون ، وهم الذين يمثلون الفرعونية في المجتمع ، وفيهم مستضعَفون .

طوائف المجتمع الفرعوني

فالطائفة الأولى : اذن في التجزئة الفرعونية لمجتمع الظلم ، هم الظالمون المستضعَفون، هؤلاء الذين يحشرون يوم القيامة في زمرة الظالمين ، ثم يقولون

(1) سورة القصص الآية / ٤ .
(2) سورة سبأ الآية / ٣١ .

للمستكبرين من الظالمين لولا أنتم لكنا مؤمنين ، هذه هي الطائفة الأولى التي تشكل الحماية والسند للفرعونية .

الطائفة الثانية : في عملية التمزقة الفرعونية لمجتمع الظلم، ظالمون، يشكلون حاشية، ومتملقون، اولئك الذين قد لا يمارسون ظلماً بأيديهم بالفعل ، ولكنهم دائماً وأبداً على مستوى نزوات فرعون وشهواته ، يسبقونه بالقول من أجل أن يصححوا مسلكه ومسيرته . قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾(١) .

شكلوا دور الاثارة لفرعون ، هؤلاء كانوا يعرفون انهم بهذا الكلام يضربون على الوتر الحساس في قلب فرعون ، فتسابقوا إلى هذا الكلام لكي يجعلوا فرعون يعبر عما في نفسه ، ويتخذ الموقف المنسجم مع مشاعره وعواطفه وفرعونيته .

الطائفة الثالثة : في عملية التجزئه الفرعونية لمجتمع الظلم ، أولئك الذين عبر عنهم الإمام علي عليه الصلاة والسلام « بالهَمَج الرعاع » ، جماعة هم مجرد آلات مستسلمة ، لاتحس بالظلم ، ولا تدرك انها مظلومة فهي تتحرك تحرك التبعية والطاعة دون تدبر ، ودون وعي ، بعد أن سلب فرعون منها تدبرها ، وعقلها ، ووعيها ، هذه الفئة طبعاً تفقد كل قدرة على الابداع البشري في مجال التعامل مع الطبيعة ،لانها تحولت إلى آلات ، وإذا وجد أن هناك ابداع في هذه الفئة فإنما هو ابداع من يحرك هذه الآلاتُ ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾(٢)

لا يوجد في كلام هؤلاء ما يشعر بأنهم كانوا يحسون بالظلم أو كانوا يحسون بأنهم مظلومون وإنما هو مجرد طاعة ، مجرد تبعية ، هؤلاء هم القسم

(١) سورة الأعراف الآية / ١٢٧ .

(٢) سورة الأحزاب الآية / ٦٧ .

الثالث في تقسيم مولانا أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام حينما قال : « الناس ثلاثة : عالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع ينعقون مع كل ناعق » وهذا القسم الثالث يشكل مشكلة بالنسبة إلى أي مجتمع صالح وبقدر ما يمكن للمجتمع الصالح أن يستأصل هذا القسم الثالث بتحويله إلى القسم الثاني ، بتحويله إلى متعلم على سبيل النجاة على حد تعبير الإمام ، إلى تابع باحسان على حد تعبير القرآن ، إلى مقلد بوعي وتبصر على حد تعبير الفقه ، يمكن للمجتمع الصالح أن يستمر وأن يمتد . ولهذا كان من ضرورات المجتمع الصالح في نظر الإمام عليه الصلاة والسلام ، هو شجب هذا القسم الثالث ، هؤلاء الهمج ، الرعاع الذين ينعقون مع كل ناعق ، ليس لهم عقل مستقل ، وارادة مستقلة . كان الإمام (ع) يرى أنه يجب تصفيته من المجتمع الصالح ، وذلك لا بالقضاء عليه فردياً ، بل بتحويله إلى القسم الثاني ضمن إحدى الصيغ الثلاث التي ذكرناها ، لكي يستطيع المجتمع الصالح أن يواصل ابداعه ، ولكي يستطيع كل أفراد المجتمع الصالح ، أن يشكلوا مشاركة حقيقية في مسيرة الإبداع .

وخلافاً لذلك الفرعونية ، فالفرعونية تحاول أن توسع من هذا القسم الثالث . وكلما توسعت هذه الفئة أكثر فأكثر قدمت المجتمع نحو الدمار خطوة بعد خطوة ، لان هذه الفئة لا تستطيع بوجه من الوجوه ، أن تدافع عن المجتمع إذا حلت كارثة في الداخل ، أو طرأت كارثة من الخارج ، ولذا فهم كلما توسعوا في المجتمع كماً وكيفاً ازداد خطر فنائه ، وبهذا تموت المجتمعات موتاً طبيعياً ، في مقابل الموت المخروم .

أما الطائفة الرابعة : هم أولئك الذين يستنكرون الظلم في أنفسهم ، أولئك الذين لم يفقدوا لبهم أمام فرعون والفرعونية ، فهم يستنكرون الظلم لكنهم يهادنونه ويسكتون عنه ، فيعيشون حالة التوتر والقلق في أنفسهم .

وهذه الحالة ، أبعد ما تكون عن حالة تسمح للانسان بالابداع والتجديد

والنمو على ساحة علاقات الانسان مع الطبيعة . هؤلاء يسميهم القرآن الكريم ﴿ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُم الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيْمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِروا فِيهَا ﴾ [1] .

هؤلاء لم يظلموا الآخرين ، ليسوا من الظالمين المستضعفين كالطائفة الأولى ، وليسوا من الحاشية المتملقين ، وليسوا أيضاً من الهمج الرعاع الذين فقدوا لبهم ، بل بالعكس ، هم يشعرون بأنهم مستضعفون . ﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ولكنهم كانوا عملياً مهادنين ، ولهذا عبر عنهم القرآن بأنهم ظلموا أنفسهم ، هذه الطائفة هل يترقب منها أن تساعد بابداع حقيقي في مجال علاقات الانسان مع الطبيعة ؟ طبعاً كلا .

الطائفة الخامسة : في عملية التجزئة الفرعونية للمجتمع هي : الطائفة التي تتهرب من مسرح الحياة ، وتبتعد عنه وتترهبن ، وهذه الرهبانية موجودة في كل مجتمعات الظلم على مرّ التاريخ ، وهي تتخذ صيغتين :

الأولى : رهبانية جادة تريد أن تفر بنفسها لكي لا تتلوث بأوحال المجتمع ، هذه الرهبانية الجادة التي عبر عنها القرآن الكريم بقوله :
﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوها ﴾ [2] .

هذه الرهبانية يشجبها الاسلام لانها موقف سلبي تجاه مسؤولية خلافة الانسان على الأرض .

الثانية : رهبانية مفتعلة ، يترهب ويلبس مسوح الرهبان ولكنه ليس راهباً في أعماق نفسه ، وإنما يريد بذلك أن يخدر الناس ويشغلهم عن فرعون وظلم فرعون ، ويسطو عليهم نفسياً وروحياً .

---

(١) سورة النساء الآية / ٩٧ .

(٢) سورة الحديد الآية / ٢٧ .

﴿ إنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾[1] .

الجماعة السادسة : والاخيرة في عملية التجزئة الفرعونية للمجتمع هم : المستضعفون .

ففرعون حينما اتخذ من قومه شيعاً ، استضعف طائفة معينة منهم خصها بالاذلال وهدر الكرامة ، لانها كانت هي الطائفة التي يتوسم أن تشكل اطاراً للتحرك ضده ولهذا استضعفها بالذات :

﴿ وَإِذ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آل فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَائَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَالِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[2] .

وقد علمنا القرآن الكريم ضمن سنة من سنن التاريخ أيضاً ، أن موقع أي طائفة في التركيب الفرعوني لمجتمع الظلم ، يتناسب عكساً مع موقعه بعد انحسار الظلم ، وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾[3] .

تلك الطائفة السادسة التي كانت هي منحدر التركيب ، يريد الله سبحانه وتعالى أن يجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين .

وهذه علاقة اخرى وسنة تاريخية اخرى يأتي الحديث عنها انشاءالله تعالى .

اذن فالى هنا استخلصنا هذه الحقيقة وهي : أن المجتمع يتناسب مدى الظلم فيه تناسباً عكسياً مع ازدهار علاقات الانسان مع الطبيعة ، ويتناسب مدى العدل فيه تناسباً طردياً مع ازدهار علاقات الانسان مع الطبيعة .

---

(١) سورة التوبة الآية / ٣٤ .

(٢) سورة البقرة الآية / ٤٩ .

(٣) سورة القصص الآية / ٥

فمجتمع الفرعونية المجزأ المشتت ،مهدور القابليات والطاقات والامكانيات ، ومن هنا تحبس السماء قطرها ، وتمنع الأرض بركاتها .

وأما مجتمع العدل فهو على العكس تماماً ، هو مجتمع تتوحد فيه كل القابليات ، وتتساوى فيه كل الفرص والامكانيات ، هذا المجتمع الذي تحدثنا الروايات عنه ، من خلال ظهور الإمام المهدي عليه الصلاة والسلام ، وتحدثنا عما تحتفل به الأرض والسماء في ظل الإمام المهدي (ع) من بركات وخيرات ، وليس ذلك إلا لان العدالة دائماً وأبداً تتناسب طرداً مع ازدهار علاقات الانسان مع الطبيعة ، هذه العلاقة الثانية بين الخطين .

- ٨ -

علاقة النظرية القرآنية بالتشريع الاسلامي

خرجنا مما سبق بنظرية تحليلية قرآنية كاملة لعناصر المجتمع ، ولأدوار هذه العناصر ، وللعلاقة القائمة بين الخطين المزدوجين في العلاقة الاجتماعية ، خط علاقات الانسان مع أخيه الانسان ، وخط علاقات الانسان مع الطبيعة ، وانتهينا على ضوء هذه النظرية القرآنية الشاملة ، إلى أن هذين الخطين احدهما مستقل عن الآخر استقلالاً نسبياً ، ولكن كل واحد منهما له نحو تأثير في الآخر على الرغم من ذلك الاستقلال النسبي .

وهذه النظرية القرآنية في تحليل عناصر المجتمع ، وفهم المجتمع فهما موضوعياً ، تشكل أساساً للاتجاه العام في التشريع الاسلامي ، فان التشريع الاسلامي في اتجاهاته العامة وخطوطه العريضة ، يتأثر ويتفاعل مع وجهة النظر القرآنية الى المجتمع وعناصره ، وأدوار هذه العناصر ، والعلاقات المتبادلة بين الخطين .

هذه النظريات التي انتهينا إليها على ضوء المجموعة المذكورة سابقاً من النصوص القرآنية ، هي في الحقيقة ، الأساس النظري للاتجاه العام للتشريع الاسلامي ، فان الاستقلال النسبي بين الخطين ، خط علاقات الانسان مع أخيه الانسان ، وخط علاقات الانسان مع الطبيعة ، يشكّل القاعدة لعنصر الثبات في الشريعة الاسلامية والأساس لتلك المنطقة الثابتة من التشريع ، التي تحتوي على الأحكام العامة المنصوصة ذات الطابع الدائم المستمر . بينما منطقة التفاعل بين الخطين ، بين خط علاقات الانسان مع الطبيعة ، وخط علاقات

الانسـان مع أخيـه الانسان ، تشكّـل في الحقيقة الأسـاس لما أسميناه في كتـاب « اقتصـادنا » بمنـطقة الفـراغ ، تشكل الأسـاس للعنـاصر المـرنـة والمتحـركـة في التشريـع الاسلامي ، والتي تـرك للحاكم الاسلامي مهمة ملإها وفقـاً لمؤشرات اسلامية عامة أيضاً .

وهذا بحث يحتاج إلى كلام أكثر من هذا ، تفصيلاً واطناباً ، من المفروض أن نستـوعب هذا البحث انشـاءالله لكي نـربط الجـانب التشريعي من الاسـلام بالجانب النظري التحليلي من القرآن الكريم لعناصر المجتمع .

وبعد ذلك يبقى علينا بحث آخر في نظرية الاسـلام عن أدوار التاريـخ ، عن أدوار الانسـان على الأرض ، فـان القرآن الكـريم يقسم حياة الانسـان على الأرض إلى ثـلاثـة أدوار ، دور الحضـانـة ، ودور الـوحـدة ، ودور التشتت والاختلاف .

وهـذه الأدوار الثلاثـة ، تحـدث عنهـا القـرآن الكـريم ، وبـيّن لكـل دور الحالات والخصائص والمميزات التي يتميز بها .

وهذا أيضاً بحث سوف نخرج منه بنظرية شاملة كـاملة لهذا الجـانب من تـاريخ الانسـان ، كـل ذلـك لا يمكن أن يسعـه يـوم واحـد وبحث واحـد ، اذن فمن الأفضل أن نؤجل ذلك ،

- ٩ -

نهاية المطاف :

حديث الروح

وننصرف الآن من منطقة الفكر إلى منطقة القلب ، من منطقة العقل إلى منطقة الوجدان ، أريد أن نعيش معا لحظات بقلوبنا ووجداننا لا بعقولنا فقط ، نريد أن نعرض هذه القلوب على القرآن الكريم بدلاً عن أن نعرض أفكارنا وعقولنا ، لمن ولاؤها ؟ ما هو ذاك الحب الذي يسودها ويمحورها ويستقطبها؟ إن الله سبحانه وتعالى لا يجمع في قلب واحد ولاءين ، لا يجمع حبين مستقطبين . إما حب الله وإما حب الدنيا ، أما حب الله وحب الدنيا معاً فلا يجتمعان في قلب واحد ، فلنمتحن قلوبنا ، لنرى هل تعيش حب الله سبحانه وتعالى ، أو تعيش حب الدنيا ، فان كانت تعيش حب الله زدنا ذلك تعميقاً وترسيخاً ، وإن كانت « نعوذ بالله » تعيش حب الدنيا ، حاولنا أن نتخلص من هذا الداء الوبيل والمرض المهلك .

إن كل حب يستقطب قلب الانسان يتخذ احدى درجتين :

الدرجة الأولى : أن يشكل هذا الحب محوراً وقاعدة لمشاعر وعواطف وآمال وطموحات هذا الانسان ، قد ينصرف عنه في قضاء حاجة في حدود خاصة ، ولكن سرعان ما يعود إلى القاعدة لانها المركز ، وهي المحور ، قد ينشغل بحديث ، قد ينشغل بكلام ، قد ينشغل بعمل ، بطعام ، بشراب ، بمواجهة ، بعلاقات ثانوية ، بصداقات ، لكن يبقى ذاك الحب هو المحور .

الدرجة الثانية : من الحب المحور ، أن يستقطب هذا الحب كل وجدان

الانسـان ، بحيث لا يشغله شيء عنه عـلى الاطلاق ، ومعنى أنـه لا يشغله شيء عنه ، انه سوف يرى محبوبه وقبلته وكعبته اينما توجه .

هذا التقسيم الثنائي ينطبق على حب الله وينطبق على حب الدنيا .

الحب الشريف لله المحور يتخذ هاتين الدرجتين ، الدرجة الأولى يتخـذها في نفوس المؤمنين الصالحين الطاهرين ، الذين نظفـوا نفوسهم مـن أوسـاخ هذه الـدنيا الـدنية ، هؤلاء يجعلون من حب الله محـوراً لكل عـواطفهم ومشـاعـرهـم وطموحاتهم وآمالهم ، قد ينشغلون بوجبة طعام ، بمتعة من المتع المباحـة ، بلقاء مع صديق ، بتنزه في شارع ، ولكن يبقى هـذا هو المحور الذي يـرجعون إليـه بمجرد أن ينتهي هذا الانشغال الطارىء ، وأما الدرجة الثانية، فهي لدرجـة التي يصـل إليهـا أوليـاء الله من الأنبيـاء والأئمـة عليهم أفضـل الصـلاة والسـلام ، « علي بن أبي طالب » الذي نحظى بشرف مجـاورة قبره ، هـذا الرجـل العظيم ، كلكم تعرفون ماذا قال ، هو الذي قال « بأني مـا رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معـه وقبله وبعده وفيه» ، لأن حب الله في هذا القلب العظيم ، استقطب وجدانه إلى الدرجة التي منعه من أن يرى شيئاً آخر غير الله ، حتى حينما كان يرى الناس ، كان يرى فيهم عبيد الله ، حتى حينمـا كـان يـرى النعمـة المـوفـورة كـان يـرى فيهـا نعمـة الله سبحانه وتعـالى ، هذا المعنى الحـرفي ، هذا الـربط بالله دائـماً وأبداً يتجسـد أمام عينه لان محبوبه الأوحد ، ومعشوقه الأكمل ، قبلة آماله وطموحـاته ، لم يسمـح له بشريك في النظر ، فلم يكن يرى إلا الله سبحانه .

ونفس التقسيم الثنائي يأتي في حب الـدنيا ، الـذي هو رأس كـل خطيئـة على تعبير رسول الله (ص) ، حب الدنيا يتخذ درجتين :

الـدرجـة الأولى : أن يكـون حب الـدنيـا محوراً لـلانسـان في تصرفـاتـه وسلوكه ، يتحرك حينما تكون المصلحة الشخصية في أن يتحـرك ، ويسكن حينما تكون المصلحة الشخصية في أن يسكن ، يتعبد حينـما تكون المصلحـة الشخصية في أن يتعبـد وهكذا ، الـدنيا تكـون هي القاعـدة ، لكن أحيانـاً أيضاً يمكن أن

يفلت من الدنيا ، يشتغل اشغالاً أخرى نظيفة ، طاهرة ، قد يصلي لله ، قد يصوم لله ، لكن سرعان ما يرجع مرة أخرى إلى ذلك المحور وينشد إليه ، فلتات يخرج بها من إطار ذلك الشيطان ثم يرجع إلى الشيطان مرة أخرى ، هذه درجة أولى من هذا المرض الوبيل ، مرض حب الدنيا .

الدرجة الثانية : منن هذا المرض الوبيل هي الدرجة المهلكة ، حينها يعمي حب الدنيا هذا الانسان ، يسد عليه كل منافذ الرؤية ، يكون بالنسبة ألى الدنيا كما كان سيد الموحدين وأمير المؤمنين بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى ، انه لم يكن يرى شيئاً إلا وكان يرى الله معه وقبله وبعده ، حب الدنيا في الدرجة الثانية يصل إلى مستوى بحيث ان الانسان لا يرى شيئاً إلا ويرى الدنيا فيها وقبلها وبعدها ومعها ، حتى الأعمال الصالحة تتحول عنده وبمنظاره إلى دنياً ، تتحول عنده إلى متعة ، إلى مصلحة شخصية حتى الصلاة ، حتى الصيام ، هذه الألوان كلها تتحول إلى دنيا لا يمكنه أن يرى شيئاً إلا من خلال الدنيا ، إلا من خلال مقدار ما يمكن لهذا العمل أن يعطيه من حفنة مال ،أو من حفنة جاه ، لا يمكن أن يستمر معه إلا بضعة أيام معدودة .

وكل من الدرجتين مهلكة ، والدرجة الثانية أشد هلكة من الدرجة الأولى ، ولهذا قال رسول الله (ص): « حب الدنيا رأس كل خطيئة » .

وقال الإمام الصادق (ع) : « الدنيا كماء البحر كلما ازداد الانسان منه شرباً ازداد عطشاً » .

لا تقل : فلآخذ هذه الحفنة من الدنيا ثم أنصرف عنها ، فلأحصل على هذه المرتبة من جاه الدنيا ثم أنصرف إلى الله ، ليس الأمر كذلك ، فان أي مقدار تحصل عليه من مال الدنيا ، ومقاماتها ، سوف يزداد بك العطش والنهم إلى المرتبة الأخرى ، « الدنيا كماء البحر » ، « الدنيا رأس كل خطيئة » . الرسول(ص يقول :« من أصبح وأكبر همه الدنيا فليس له من الله شيء » .هذا الكلام يعني قطع الصلة مع الله ، يعني أن ولائين لا يجتمعان في قلب واحد .

« حب الدنيا رأس كل خطيئة » ، لأن حب الدنيا هو الذي يفرغ الصلاة من معناها ، ويفرغ الصيام من معناه ، ويفرغ كل عبادة من معناها ، ماذا يبقى من معنى لهذه العبادات ، إذا استولى حب الدنيا على قلب الانسان ، أنا وأنتم نعرف أن أولئك الذين نذمهم على ما عملوا مع أمير المؤمنين ، لم يتركوا صلاة ، ولم يتركوا صياماً ، ولم يشربوا خمراً ، على الأقل عدد كبير منهم لم يقوموا بشيء من هذا القبيل ، ومع ذلك يمكن القول ما قيمة صلاة عبد الرحمن بن عوف ، عبد الرحمن بن عوف كان صحابياً جليل القدر ، كان من السابقين إلى الاسلام ، كان ممن أسلم والناس كفار ومشركون ، تربى على يد رسول الله (ص) ، عاش مع الوحي ، مع القرآن ، مع آيات الله تترى ، لكن ماذا دهاه ؟ ماذا دهاه حينما فتح الله على المسلمين بلاد كسرى وقيصر ، هذا الرجل المسكين ملأ قلبه حب الدنيا ، كان يصلي ويصوم ، ولكن ملأ قلبه حب الدنيا حينما وقف في خيار واحد بين عثمان وعلي (ع) ، اما أن يكون عثمان خليفة المسلمين واما أن يكون علي خليفة المسلمين ، وهو يعلم أنه لو بايع بالخلافة لعلي لأسعد المسلمين إلى أبد الدهر ، ولكنه يعلم أيضاً انه حينما يعطيها إلى عثمان فقد فتح بذلك باب الفتن إلى آخر الدهر ، يعلم بذلك ، وقد سمع ذلك من عمر نفسه أيضاً ، ولكنه في هذا الخيار غلب حب الدنيا على قلبه ، ضرب على يد عثمان وترك يد علي مبسوطة تنتظر من يبايع . قد تقولون إن هذه معصية كترك الصلاة ، لان رسول الله (ص) جعل علياً خليفة بعده بلا فصل ، هذا صحيح ، فتولي علي بن أبي طالب أهم الواجبات ، ولكن أفرضوا وفرض المحال ليس بمحال ، لو أن رسول الله لم ينص على علي بن أبي طالب . أكان هذا الموقف من عبد الرحمن بن عوف مهضوماً وصحيحاً بمنطق حب الله وحب الدنيا ، ومنطق الحرص على الاسلام والمسلمين ؟ طبعاً لا

فالمسألة هنا إذن ليست فقط مسألة نص ، وإنما المسألة هنا مسألة حب الدنيا ، مسألة خيانة الأمانة لأن حب الدنيا يعمي ويصم .

« حب الدنيا رأس كل خطيئة » وحب الله سبحانه أساس كل كمال ،

فحب الله هو الذي يعطي للانسان الكمال ، والعزة ، والشرف ، والاستقامة ، والنظافة ، والقدرة على مغالبة الضعف في كل الحالات .

حب الله سبحانه هو الذي جعل أولئك السحرة ، يتحولون إلى رواد على الطريق ، فقالوا لفرعون :

﴿ فَاقْضِ ما أَنْت قاضٍ إنَّما تَقْضي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيَا ﴾ (١)

كيف قالوا هكذا ؟ لان حب الله اشتعل في قلوبهم فقالوا لفرعون بكل شجاعة وبطولة « فاقض ما انت قاض ، انما تقضي هذه الحياة الدنيا » .

حب الله هو الذي جعل علياً عليه الصلاة والسلام دائماً يقف مواقف الشجاعة ، هذه الشجاعة ، ليست شجاعة السباع ، وإنما هي شجاعة الإيمان وحب الله ، لماذا ؟ لان هذه الشجاعة لم تكن فقط شجاعة البراز في ميدان الحرب ، بل كانت أحياناً شجاعة الرفض ، أحياناً شجاعة الصبر ، علي بن أبي طالب ضرب المثل الأعلى في شجاعة المبارزة في ميدان الحرب ، شد حزامه وهو ناهز الستين من عمره الشريف ، وهجم على الخوارج وحده فقاتل أربعة آلاف إنسان ، هذه قمة الشجاعة في ميدان المبارزة لان حب الله اسكره ! فلم يجعله يلتفت إلى أن هؤلاء أربعة آلاف وهو واحد ! وضرب قمة الشجاعة في الصبر ، حينما فرض عليه الإسلام أن يصبر عن حقه وهو في قمة شبابه . الإسلام قال له اسكت ، اصبر عن حقك حفاظاً على بيضة الإسلام ، ما دام هؤلاء يتحملون حفظ الشعائر الظاهرية للاسلام .

وكان قمة الشجاعة في الرفض ، وفي الاباء ، حينما طرح عليه ذلك الرجل أن يبايعه على شروط تخالف كتاب الله وسنة رسوله بعد مقتل الخليفة الثاني .

إذن ، فشجاعة البراز في يوم البراز ، وشجاعة الصبر في يوم الصبر ، وشجاعة الرفض في يوم الرفض ، خلقها في قلب علي حبه الله ، لا اعتقاده

---

(١) سورة طه الآية / ٧٢ .

بـوجود الله ، هـذا الاعتقاد الـذي يشاركـه فيه فـلاسفة الاغـريق ايضـا . ليس الاعتقاد وانما حب الله اضافة إلى الاعتقاد ، هذا هو الذي صنع هذه المواقف .

ونحن أوْلىٰ الناس بأن نطلِّق الدنيا ، اذا كان حب الدنيا خطيئة ، فهو منا نحن الطلبة من اشد الخطايا .

نحن أوْلىٰ من غيرنا بأن نكون عـلى حذر من هـذه الناحيـة ، أولاً : لاننا نصبنا أنفسنا أدلاء للناس على طريق الآخرة .

اذن كيف تقطع دنياك عن الآخرة ؟ اذا كانت دنيـاك مقطوعـة عن الآخرة فسوف تشد دنيـا الناس إلى دنيـاك لا إلى آخرة ربـك ، سوف نتحـول إلى قطاع طريق ، ولكن أي طريق ، الطريق إلى الله ، هذا الطريق إلى الله نحن رواده ، ونحن القائمون على الدلالة اليه ، وعلى الاخذ بيد الناس فيـه ، فلو اننا أغلقنـا باب هذا الطريق ، وتحولنا عنه إلى طريق آخر ، فسوف نكون حـاجبا عن الله ، وحاجبا عن اليوم الآخر . كل انسان يستولي حب الدنيا على قلبه يهلك هو ، أما لـطلبة ، أمـا نحن اذا استولى حب الـدنيـا عـلى قلوبنـا ، سـوف نهلك ونهلك الآخرين ، لاننا وضعنا أنفسنا في موضع المسؤولية ، في موضع ربط الناس بـالله سبحـانه وتعـالى والله لا يعيش في قلوبنـا ، اذن سـوف لن نتمكن من أن نـربط الناس بالله .

نحن اولى الناس واحق الناس بـاجتناب هـذه المهلكة ، لاننـا ندعي أننـا ورثة الانبياء وورثة الائمة والاولياء،واننا السائرون عـلى طريق محمـد(ص) وعلي والحسن والحسين عليهم الصلاة والسلام .

ألسنا نحاول أن نعيش شرف هذه النسبة ، هذه النسبة تجعـل موقفنـا أدق من مـواقف الآخـرين ، لاننـا نحن حملة أقـوال هؤلاء وافعـال هؤلاء ، أعـرف الناس بأقوالهم ، واعرف الناس بأفعالهم ، ألم يقل رسول الله (ص) :

« انا معاشر الانبياء لا نورث ذهبا ولا فضة ولا عقاراً ، انما نورث العلم

والحكمـة » ؟ ألم يقل عـلي بن ابي طالب عليـه الصلاة والسـلام : « ان امارتكم هـذه لا تساوي عندي شيئا الا أن أقيم حقا أو أدحض باطلا » .

علي بن أبي طالب كان يعمل لله سبحانه ، لم يكن يعمل لدنيـاه ، لو كـان علي يعمل لدنياه لكان اشقى الناس واتعس الناس ، لان عليا حمل دمه عـلى يده منذ صباه ،يذب عن وجه رسول الله(ص)وعن رسالة الله ،لم يتردد لحـظة في أن يقـدم ، لم يكن يحسب للموت حسـابا ، لم يكن يحسب للحيـاة حسـابـا ، كـان أطوع الناس لرسول‌الله في حياة رسول الله(ص)،وكان أطوع الناس لرسول الله بعد رسول الله(ص)،كان اكثر الناس عملا في سبيل الدين ،ومعـاناة من أجـل الاسلام .

لو جئنا إلى مقاييس الدنيـا ، ماذا حصـل عليه هـذا الرجـل العظيم ؟ ألم يُقْصَ هذا الرجل العظيم ، ألم يكن جليس بيتـه فترة من الـزمن ، ألم يسبّ هذا الرجل العظيم ألف شهر عـلى منابـر المسلمين ! التي اقيمت اعـوادها بجهـاده ، بدمه ، وتضحياته .

ولكنه على الرغم من ذلك حينما ضربه عبد الرحمن بن ملجم بـالسيف على رأسه ماذا قال هذا الامام العظيم ؟ قـال « لقد فـزت ورب الكعبة » لـو كان علي يعمل لدنياه لقـال والله اني أتعس انسان لاني لم أحصـل على شيء في مقـابل عمر كله جهاد ، كله تضحية ، وكله حب لله ، لكنه لم يقـل ذلك ، قـال « لقد فزت ورب الكعبة » انها والله الشهادة ، لانه لم يكن يعمل لدنيـاه ، كان يعمـل لربه ، والان لحظة اللقاء مع الله ، هذه اللحـظة هي اللحظة التي سـوف يلتقي بها علي مع الله سبحانه وتعالى فيوفيه حسابه ويعـطيه أجـره ، يعوضـه عما تحمـل من شدائد ، عما قاسى من مصائب ، أليس هذا الامام هو مثلنا الاعلى ، أليست حياة هذا الامام هي السنة ، أليست السنـة هي قول المعصـوم وفعله وتقريـره . علينا أن نحذر من حب الدنيا ، لانـه لا دنيا عنـدنا لكي نحبهـا ! ماذا نحب ؟ نحب الدنيا ؟ ! نحن الـطلبة ! مـا هي هذه الـدنيا التي نحبهـا ونريـد ان نغرق

انفسنا فيها ونترك رضوانـا من الله أكبر ، نـترك ما لا عـين رأت ولا أذن سمعت ولا اعـترض على خيـال بشر ، ما هي هـذه الـدنيـا ؟ دنيـانـا هي مجمـوعـة من الاوهام ، كل دنيا وهـم ، لكن دنيانا اكثر وهما من دنيا الاخـرين ، ماذا نحصـل من الدنيا الا على قدر محـدود جدا ، لسـنـا نحن أولئك الـذين تركـع الدنيـا بين أيدينا لكي نؤثر الدنيا على الآخرة ، دنيا هـارون الرشيـد كانت عـظيمة ، نقيس انفسنـا بهارون الـرشيد ، هـارون الرشيـد نسبّـه ليـلا نهارا لانـه غـرق في حب الدنيا ، لكن تعلمـون أي دنيا غـرق فيها هـارون الرشيـد ، أي قصور مـرتفعة عاش فيها هارون الرشيد ، أي بذخ وترف كان يحصـل عليه هـارون الرشيـد ، أي زعامة وسلطان امتد مع أرجاء الدنيا حصل عليه هارون الرشيد ، هـذه دنيا هـارون الرشيـد ، نحن نقول بـأننا أفضـل واورع وأتقى من هارون الـرشيـد ، عجباه نحن عرضت علينا دنيا هـارون الرشيـد فرفضنـاها حتى نكـون أورع من هارون الرشيد .

يا أولادي ، يا إخواني ، يا أعزائي ، يا أبناء علي . . هـل عرضت علينـا دنيا هارون الرشيد ، لا . . عرض علينا دنيا هزيلة ، محدودة ، ضئيلة ، دنيا ما أسرع ما تتفتت ، ما اسرع ما تزول ، دنيا لا يستطيع الانسان أن يتمدد فيها كما كان يتمدد هارون الرشيد ، هارون الـرشيد يلتفت إلى السحـابة يقـول لها أينـما تمطرين يأتيني خراجك ، في سبيل هذه الدنيا سجن موسى بن جعفر (ع) ، هـل جـربنا أن هـذه الدنيـا تأتي بيـدنا ثم لا نسجن مـوسى بن جعفر ؟ طـرحنا هـذا السؤال على انفسنا ، كـل واحد منـا يطرح هـذا السؤال على نفسـه ، بينه وبـين الله . ان هذه الدنيا ، دنيا هـارون الرشيـد كلفته أن يسجن مـوسى بن جعفر ، هل وضعت هذه الدنيا أمامنا لكي نفكر بأننا أتقى من هارون الـرشيد ، مـا هي دنيانا ؟ هي مسخ من الدنيا ، هي أوهام من الدنيا ، ليس فيها حقيقة الا حقيقة رضـوان الله ، كل طـالب علم حالـه حال عـلي بن أبي طالب ، اذا كـان يعمل للدنيا فهو أتعس انسان ، لان أبواب الدنيا مفتوحة لأي طالب اذا كان طالباً لـه قابلية وذكاء ، فاذا كان يعمل للدنيا فهو أتعس انسان ، لانه سوف يخسر الدنيـا

والآخرة ، لا دنيا الطلبة دنيا . ولا الآخرة يحصل عليها . فليكن همنا أن نعمل للآخرة ، أن نعيش في قلوبنا حب الله سبحانه بدلاً عن حب الدنيا .

الائمة عليهم السلام علمونا بأن تَذَكّر الموت دائما يكون من العلاجات المفيدة لحب الدنيا ، كل واحد منا يعتقد بأن كل من عليها فان ، لكن القضية دائما وابدا لا يجسدها بالنسبة إلى نفسه ، من العلاجات المفيدة ان يجسدها بالنسبة إلى نفسه ، دائما يتصور بأنه يمكن أن يموت بين لحظة واخرى ، كل واحد منا يوجد لديه أصدقاء ماتوا ، واخوان انتقلوا من هذه الدار إلى دار الأخرى ، أبي لم يعش في الحياة أكثر مما عشت حتى الآن ، أخي لم يعش في الحياة أكثر مما عشت حتى الآن ، أنا الآن استوفيت هذا العمر ، من المعقول جداً أن أموت في السن الذي مات فيه أبي وأخي . كل واحد منا لا بد وأن يكون له قدوة من هذا القبيل ، لا بد وأن أحباباً له قد رحلوا ، أعزة له قد انتقلوا لم يبق من طموحاتهم شيء ، لم يبق من آمالهم شيء إن كانوا قد عملوا للآخرة فقد رحلوا إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وإذا كانوا قد عملوا للدنيا فقد انتهى كل شيء بالنسبة اليهم .

هذه عبر ، هذه العبر التي علمنا الائمة عليهم السلام ان نستحضرها دائما ، تكسر فينا شره الحياة ، ما هي هذه الحياة ؛ لعلها أيام فقط ، لعلها أشهر فقط ، لعلها سنوات ، لماذا نعمل ونحرص دائما على اساس انها حياة طويلة ، لعلنا لا ندافع الا عن عشرة ايام ، الا عن شهر ، الا عن شهرين لا ندري عن ماذا ندافع ، لا ندري اننا نحتمل هذا القدر من الخطايا ، هذا القدر من الآثام ، وهذا القدر من التقصير أمام الله سبحانه وأمام ديننا ، نتحمله في سبيل الدفاع عن ماذا ، عن عشرة أيام عن شهر ، عن أشهر . . . هذه بضاعة رخيصة .

نسأل الله سبحانه وتعالى ان يطهر قلوبنا وينقي ارواحنا ، ويملأها حباً له ، وخشية منه ، وتصديقاً به ، وعملاً بكتابه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفهرس

الموضوع ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ الصفحة

الموضوع	الصفحة